روائع
الأدب الروماني

سادوفينو

عضو مجلس السلام العالمي وعميد كتاب رومانيا الشعبية



ساعات السلام

عبد النور خليل

المكتب الدولي
للترجمة والنشر

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين
جمهورية مصر العربية

ميهال سادڤينو

ساعات السلام

تعريب

عبد النور خليل

قام برسم الغلاف واللوحات الداخلية

محبوب صادق و فاروق توفيق

الناشر

المكتب الدولي للترجمة والنشر

(وجيه راضي وشركاه)

١٠ شارع جلال ت ٧٦٧٥٣ ، ر٤

التوزيع فى مصر

المكتب الدولى للترجمة والنشر

(وجيه راضى وشركاه)

١٠ شارع جلال - القاهرة

التوزيع فى السودان والبلاد العربية

شركة فرج الله للصحافة

القاهرة ص . ب ١٥٢٥

طبع فى دار قنديل للطباعة والنشر

حسين قنديل وشركاه

٥٩ شارع العباسية - القاهرة

كاتب من رومانيا

بقلم عبد النور خليل



إن عبقرية سادوفينو ككاتب إنسانى ـ وأعماله الانسانية الكثيرة التى بدأها منذ نصف قرن ويزيد ، لها أكبر الأثر على الأدب الرومانى المعاصر .

وسادوفينو كاتب قصة كبير ، وخبير باللغه الرومانية ، وبصيرته التى تعى الحقائق نافذة حادة ، وهو بعد هذا محلل نفسانى بارع . وتعتبر أعماله تعبيرا صادقا رائعا عن أهله وناسه الذين تشده اليهم أكبر الوشائج الانسانيه .

وسادوفينو ... ولد فى ٥ نوفمبر ١٨٨٠ فى مدينة باسكانى ، وهى مدينة صغيرة فى شمال ملدوفيا فى مجتمع فقير ، وجمهرة من الناس يأكلهم العوز ، كانوا يطلقون عليهم فى هذا الحين لقب (الدهماء) وكانت أمه فلاحة من فرسينى وهى قرية صغيرة

على ضفة نهر ملدوفيا .. وفى خــلال نظرة هذه الأم الفلاحة الى الحياةاستقى سادوفينو تذوقه لحياة الناس من العامة . واليها يرجع الفضل فى شغفه الكبير بهؤلاء الناس الذين عاشوا فى جهل وبؤس وفقر .

وفى إكاديمية الجمهورية الرومانية الشعبية وقف سادوفينو يخطب فى الاحتفال الذى أقيم بعيد ميلاده السبعين قال : لم يكن يسر أمى خــلال حياتها القصيرة أكثر من كفاحها لنقلى إلى محيط آخر ، محيط الناس الذين يكتبون ويقرأون ، لا بد أن اعترف لكم أيها الاصدقاء أنى أول فرد فى عائلة أمى يدخل هذا الميدان ، ميدان القراءة والكتابة .. أنى مدين للدهماء هؤلاء الذين عبروا العالم عبورا سريعا ، كالأوراق والازهور التى تتساقط فى كل فصل والذين شحنونى بثروة ضخمة فى القيم وعاها القلب منى والعقل ـ يمكن أن أقدمها كتراث ذات يوم لعالم جديد لأعبر بها عن المآسى التى قاسوها والعنت الذى خلى من العدل والجرائم التى ارتكبتها ضــدهم كل الأجيال من المستغلين .

مثل هذا الوعى ، كان رائد سادوفينو فى أعماله كلها ، ولهــذا تميزت هذه الأعمال بالحب للشعب الرومانى واستعداد كبير للكفاح من أجل تقدمه وخروجه الى النور . وقد زود سادوفينو الادب الرومانى بما يزيد على ١٢٠ عملا إنسانيا وضحت فيهــا حياة شعب رومانيا منذ ايامه الاولى حتى الآن .

وتميزت اعمال سادوفينو كلها بأحساس إنسانى عميق ، وثقة لا حدود لها فى أعمار الناس ، فى قدراتهم الفائقة ،قدرة الرجل العادى

التى تمكنه من الكفاح المستمر ليحقق لنفسه حياة أفضل . وفى الحقيقة تعتبر هذه الميزة أهم ظواهر سادوفينو كلها . إن كتبه توقظ حب الحياة فى قلوب قرائه وتضع فيهم الثقة والمستقبل والأمل فى انتصار الطبقة المستغلة ذات يوم. ولم تهتز ثقة سادوفينو فى أعمار الناس، ولا فى مستقبلهم أبدا . ولهذا تعرض أعماله كفاح الماضى وتعتبر مرآة المستقبل الذى يرى فيها الناس تقدمهم عبر السنين الى مجتمع مثالى من الحرية والعدالة .

والتطور العميق الذى شمل أهل رومانيا خلال السنوات العشر الاخيرة قد ترك أثره الواضح فى أعمال سادوفينو . . . وأصبح الكاتب الذى اعتاد أن ينقد الأوضاع السائدة فى واقعية واصالة يعرض تقدما اجتماعيا فى اصالة وواقعية كذلك . وبهذه النظرة أعطى سادوفينو الأدب الرومانى مزيدا من القدرات الخالقة مثل « ماريتا كوكور » كنتيجة لادراك سايم للحياة الجديدة فى الجمهورية الشعبية الرومانية ، ونتيجة لثقة لاحد لها فى مستقبل وضىء آمن، والى جانب هذا يمتلك سادوفينو ناحية التعبير بالعامية التى يتحدث بها الناس . وهى مادة نادرة الجمال للتعبير يتعامل بها كاتب عبقرى .

وأعمال سادوفينى تمجد الماضى والحاضر جنبا الى جنب بنفس القوة، والتاريخ القلق لاهل رومانيا قد شغل الكثير من هذه الاعمال الأدبية الفائقة بأبطاله ، والرجل العادى ببساطته يمثل الشخصية الرئيسية فى هذه الأعمال . . .

وكما أحيى سادوفينو مواقف التاريخ الرومانى منذ بدأت أحداث رومانيا تسطره حتى ايامنا هذه، نجده فى هذا الكتاب « ساعات السلام » يروى تاريخ حرب الاستقلال عام ١٨٧٧ .

وكفاح أهل البلقان فى سبيل الحرية كان ضد الامبراطورية العثمانية التى ضغطت هذه الحريات واستعمرت البلقان لقرون عديدة.. وفى منتصف القرن الماضى كانت أمجاد بايزيد الثانى قد أصبحت مجرد ذكريات وأصبح « الرجل المريض » كما سميت الامبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت ، مجرد دمية فى أصـــابع القوى الاستعمارية التى تحركت ضد الروس عندما بدأوا كفاحهم من أجل الحريات فى شرق أوربا .

وبعد منتصف القرن الماضى ثار أهل البلقان مرة ثانية ليلقوا عن كاهلهم نير الاستعمار التركى ، ومما لاشك فيه ان اعلان روسيا الحرب على تركيا ، قد أيقظ الأمل فى قلوب أهل البلقان جميعا . . . ولقـــد سمحت رومانيا للجيوش الروسية أن تخترق أراضيها فى طريقها الى البوسفور فى ابريل ١٨٧٧ ؛ وفى مايو فى نفس العام أعلنت رومانيا الحرب على تركيا لتحرر اراضيها من نير الاستعمار التركى ،ولازال يوم ٩ مايو ١٨٧٧ يعتبر عيد الاستقلال فى جمهورية رومانيا حتى اليوم .

وجاءت الحرب . . واختلطت دماء الرومانيون بدماء الروس المقاتلين على حوافى الخنادق التركية فى سبيل أن تنال رومانيا حريتها واستقلالها ومن اجل هذه الحرية قاتلت الكتل الشعبية فى رومانيا وتحملت ضراوة الحرب ومآسيها ، وبذلوا نفوسهم فداء لهـا . . . ومن هـذا الكفاح ، وهذا الفداء استمد اكثر كتاب رومانيا الكلاسيك روحا لأعمالهم ، كتاب مثل ألسندرى ، ادبكو امينكو ، كريجيال وكوسيك .

وكتب سادوفينو قصصه هذه التى أقدمها اليوم لقراء العربية

للمرة الاولى « ساعات السلام » عام ١٩٠٥ وكانت ذكريات حرب الاستقلال لاتزال حية فى أذهان الناس ؛ وفى هـــذا الوقت ؛ كان جنود جريفنا القدماء لازالوا يروون للناس كيف قاتلوا « الترك الذين استعمروا أهل البلقان والدانوب » . . . وكان سادوفينو وهو فى طفولته، وعندما بدأ يذهب الى المدرسة ينصت فى شغف للذكريات المتناثرة عن حرب الاستقلال .

وفى مقدمة احـدى الطبعات العديدة فى « ساعات السلام » يقول سادوفينو أن كتابة يروى ذكريات عزيزة لأخوة الرومان والروس تحت السلاح فى اللحظة الحاسمـــة فى تاريخ رومانيا : ذكريات تعكـــس كفاح الطبقة العاملة فى رومانيا فى سبيـــل الاستقلال .

وفى « ساعات السلام » يتركز اهتمام الـكاتب بشكل كبـير على الرجـل العادى . . . بطولته وحبه لوطنه وحرية هذا الوطن ، حبه للجنس البشرى عموما ، تترك أثرها الواضح فى سادوفينو . . . وسادوفينو يقيم الحقيقـة الواضحة على أن الرجـل العادى وتضحيته الفردية هو الذى كسب الحرب . . . بانكويك وبازامورجا وآخرين هم الذين كسبوا حرب الاستقلال . ومما لاشك فيه أن أعمال هؤلاء الرجال تعتبر مثالية حيه للناس . . .

وبانكويك ، على سبيل المثال ، يغادر الخطوط لينقذ صديقا جريحا ملقى على اعتاب خنادق العدو . . . وينقذ بانكويك صديقه الا أن التقرير اليومى ؛ فى اليوم التالى يشير الى شجاعة النفر جافريل بانكويك الذى انقذ الـكوربورال ديمترى فلورى فى خنادق العدو ومات مقتولا برصاصات أربع .

« وساعات السلام » من أول أعمال سادوفينو ،وقد نشرت منذ قرن كامل ، ومنذ هذا التاريخ وهو يسير حثيثا ليقدم أعمالا انسانية خالدة ؛ وجدت مكانا فى الادب الرومانى، الكلاسيك والواقعى الذى يرسم خطى المستقبل .

وكمحب للحياة ، وبطل لما يمكن أن تقدمه فى جمال وفضيلة يعتبر سادوفينو من حماة السلام الأول . وثقته اللامحدودة فى قدرة الانسان وحقه فى حياة أفضل آمنه فى كل ما يهددها ؛ قد دفعته الى أن يكافح بلا توقف وبكل ما أوتى من قوة وموهبة فى سبيل السلام والديموقراطية وأهله هذا الكفاح الى أن يصبح رئيس مجلس السلام فى الجمهورية الشعبية الرومانية ، وعضوا للمجلس العالمى للسلام .

وقصة « ماريتا كوكور » التى قدمت على الشاشة وعلى خشبة المسرح ـ توجته بجائزة السلام الذهبية كمثال لكفاح الناس الشرفاء فى كل العالم من أجل السلام .

وفى غمرة هذه القوى الخالقة ، والثقة الغير محدودة فى مستقبل أسعد للجنس البشرى ؛ لايزال سادوفينو يؤثر فى الأدب الرومانى المعاصر ؛ بل الأدب العالمى بانتاج لاحدود لقيمته يجعله مثالا لأجيال قادمة من الكتاب .

الطاحونة المهجورة

استيقظت ... كأنما فى حلم ، وكأنما كانت الشمس بقيت فى قلبى سراكبيراً ، وعدلت سيفى الذى انزلق على طول ساقى وأنا أستدير إلى الرجال الذين يراقبوننى فى صمت وهدوء وهمست « الى أمام »

وتحركت الخيل ، وانزلقنا إلى ممشى صغير ، وضفة المستنقع الذى نسير حذاءه تنمو فيها نباتات عديدة ، وعلى سطح الماء تطفو الطحالب وترتفع سيقان السمار جامدة خامدة ؛ وضربت بطة برية الماء بجناحيها وانطلقت مذعورة مصعدة كسهم يتجه إلى قرص الشمس ، ثم سار الصمت العميق وشحوب الغسق يتكاثف ويتكاثف .

كنت مبتئسا ، وعندما طارت البطة بدأت الاحاسيس تغمر قلبى ، ماذا لو برزت رءوس الاعداء من بين النباتات ؟! ... الخوف هو الشعور الطبيعى . ولكنى لم أكن خائفا ، كنت أشعر بثقل فى صدرى ، ثمة اختلاجات حزينة ، وتخيلت أن الصدمة الاولى كافية لأن توقف هذه الاختلاجات لتتركنى قادراً على أن أقاتل العالم جميعه ؛ على أن هذا كله كان مجرد خواطر ، فأنا لم أجرب مثل هذا الموقف من قبل .

وعلى الرغم فى التفكير ، استدرت من سرجى ، وألقيت بنظرى

فوق الرجال العشر الذين يتبعوننى ، كانوا هادئين يتأرجحون فى تآلف وخطى الجياد ؛ ولا شك أن جوالغسق كان له بعض التأثير فى قلوبهم أيضاً ، وكانت أعينهم تصطدم بما يحيطهم فى كسل وفى ضياع ، وكان الكابورال بنتيلى يبتسم لنفسه والشاويش سيفان تلمع عيناه تحت حواجبه الثقيلة ، وهو ينقلها فوق النباتات على ضفة المستنقع ، كأنما أذناه المرهفة تسمع أفعى تتحرك بينها . وسألته فى صوت منخفض : « سيفان ـ مارأيك ؟! ان الكشافين لم يعودوا بعد » . وأجابنى بهدوء « ربما اكتشفوا شيئاً ياسيدى » .

واستقام الآخرون فى سروجهم ، وأراحوا أنفسهم ؛ وبعضهم تنهد كأنما تضايقهم أفكار معينة .

قال سيفان : « هناك طاحونة مهجورة فى نهاية المستنقع ، ومن سطحها يمكن رؤية القرية كلها ... ربما توقفوا هناك . وفجأة رفع سيفان رأسه ووضع يده حذاء أذنه واستأنف : كأنما أسمع شيئاً وهمست آمر الرجال بالتوقف ثم قات : « ماذا هناك ياترى ؟! »

فوقف الرجال وخفضوا بنادقهم على مناكبهم واقتربت خطوات ثقيلة منتظمة تختلط بخطوات خفيفة الوقع وقال استيفان : « انه جريكو ثم برز رجل من خلف النبات ، قصير متين البنيان يمسك بعقود جواده ، وهتف وهو يقف أمامى : « أن نستاس قادم أيضا على الضفة الاخرى » .

وعندما سألته ماهى الاخبار أجاب قائلا : « فى نهاية المستنقع طاحونة مهجورة وقد رأيت بعينى رأسى ، وكذلك رأى نستاس ، ثمانية من الاتراك يدخلونها » .

— من أين جاءوا ؟!

— من القرية ، وأظنهم كانوا يستكشفون :

وحك الشاويش سيفان رأسه وهو يقول : « ثمانية ... نستطيع أن نبيدهم دون خسائر » وهمس الكابورال بنتيلى فى ثقة : « سنفنيهم تماما ياسيدى » .

ولم أقل شيئا ... لقد أمرت أن أتقدم حذاء المستنقع ، وأهاجم الدوريات الصغيرة ، وأأسر ماستطعت من جنودها اذا صادفتهم ... إلا أن هذا كان متعذراً ، كان هناك ثمانية منهم ، يماثلوننا عدداً تقريبا ، ولن يكون من السهل اقتحام الطاحونة اذا حدث وأحسوا بنا ، وزيادة على هذا كان قلبي يخفق خفقات سريعة وتلك الاختلاجات الحزينة لاتتركنى ...وفى ثنايا الظلام الهابط ارتفع وقع أقدامى ، وسقط حجر فى المستنقع وتناثر الماء ، وظهر الكشاف الآخر نستاس قائما بين أعواد النبات وهمس « هل جاء جريكو » وأجاب البعض : « جاء »

— يبدو أنهم قد ناموا فى الطاحونة ياسيدى ... فلا حركة على الاطلاق واجتازنى نستاس لينضم الى الآخرين . كنت أدرك أن الرجال يبحثون عن المتاعب ، كانوا يتحرقون شوقا الى المعركة ،هذا الى جانب أن قائدى قد قال لى ، أن العمليات الصغيرة خلال استكشافنا هى بمثابة تدريب لهم ... سوف يقاتلون ، هؤلاء الرفاق كالأيام الخوالى فى بلادنا ، ويطلقون بنادقهم كما يطلق المرء «مقلاعا» والآن هاهم ، صامتون ينتظرون الأوامر ، وأنا أعلم أن بنتيلى ينظر الى نظرة جانبية متهكمة ، ماذا يمكننى أن أفعل ؟! أحسست بشعور حاد جارف ، ووجدتنى فجأة أستقيم فى سرجى وأهتف فى صوت

غايظ « الى الامام يارفاق »

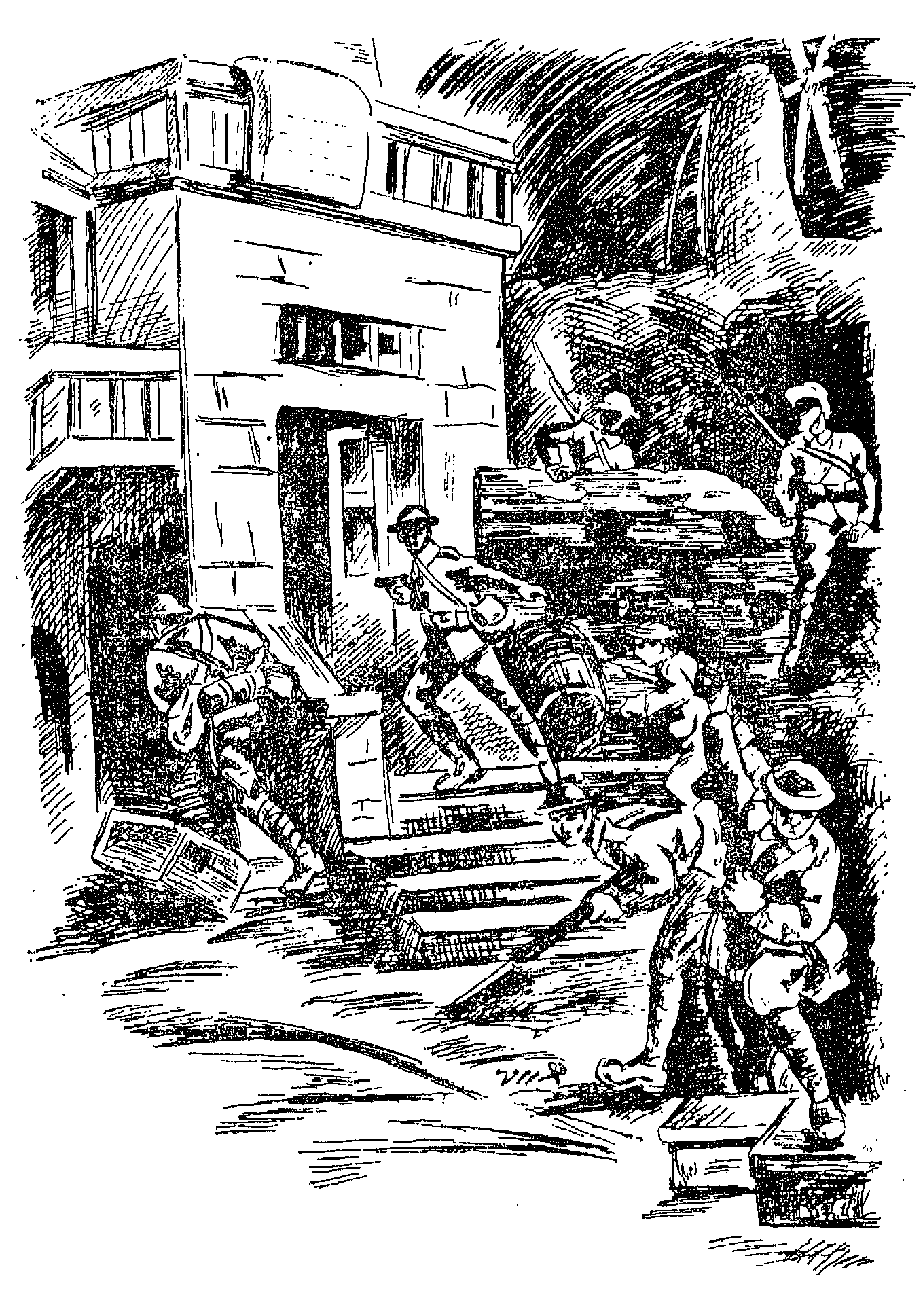
وارتفعت همهمة سريعة بين الرجال ، كصيحة فرح ؛ وتقدمنا في بطء نجتاز ظلال النبات الكثيفة ؛ وفوق السهول والوديان رفرف الصمت ... وصرخ طائر من طيور الليل ؛ والارض والسماء يلفهما الظلام ؛ وعلى ارتفاع فوق النجوم المتلألئة كانت تتجمع كتل ضخمة من السحاب .

مشينا فترة . وفجأة ظهر سقف الطاحونة ينعكس على سطح المستنقع الواسع ومن خلفه السماء الداكنة ؛ ثم اختفى على الفور مرة ثانية وانحرفنا الى حقل من حقول الحنطة والحشائش تتكسر ناشفة تحت حوافر الجياد ، ولا صوت آخر كأنما التربة قد تحولت الى صخر .

وهمست « يحسن بنا أن نرحل » وأجاب الشاويش : « سنترجل ياسيدى وعلينا أن نفعل شيئا آخر ،علينا أن نغطى نعالنا بالحشائش حتى لا يسمع الاعداء أصواتنا ؛ ثم نترك أغمدة سيوفنا معلقة فى السروج ونذهب بسيوفنا مسلولة ؛ حتى نكون أسرع فى مهمتنا . وأجبت باتزان : « طبيعى » بينما أخذت أقول لنفسى : « حسنا ، هذا الشاويش الشيطان ؛ لقد ذهبت الى المدرسة الحربية سنينا ؛ ولم أستطع أن أكون أقل فكرة عن هذه الاستعدادات » .

وبينما كنا نترجل ، وننفذ هذه الاستعدادات المقترحة ، كنت أحس بزحمة من هواء رطب تملأ خياشيمى ؛ ثم تعود فتخرج حارة كم وددت أن استلق لأستريح ؛ لقد أصبح تنفسى قصيرا مرتبكا .

وبقى رفيق الى جوار الخيل ؛ وعبرنا ضفة المستنقع وبدأنا نتجه فى حرص تجاه الطاحونة ؛ وعلى حين غرة ؛ ظهر سقف الطاحونة



... وعبرنا ضفة المستنقع وبدأنا نتجه فى حرص تجاه الطاحونة ...

بالقرب منا ... وتوقفنا وتقدمنا ، جريكو ، ونستاس ، ليستكشفا الجوادفى حذر . وجلسنا على التربة الناعمة تنحدر من الضفة العالية .

وشيئا فشيئا أخذت عيناى تعتادا الظلام ، لم أكن أستطيع أن أرى الجزء الاسفل من الطاحونة فى انعكاسها فوق المـاء . على أننا كنا نستطيع أن نميز بركة صغيرة فى الماء أمام الطاحونة على أطرافها بعض نباتات السمار والحنطة ، ومرة أخرى ينعكس فوق مياهها سقف البناء المهجور .. وارتفع صفير مزق السكون ، وانطلق طـائر من نوع مالك الحزين فى سرعة الطلقة فوق البركة الصغيره ؛ لقد عاد كشافونا .

وجلست أنتظر وأنا أرقب الطاحونة ، ماذا يمكن أن يحدث فى الدقائق التالية . ستنطلق البنادق ، ويتنـاثر الدم ، وكان من الصعب أن أصدق أن مثل هذ يمكن أن يحطم السكون الميت ... ماذا يفعل الاعداء ياترى ؟! هل رحلوا ؟! أم تراهم باقون ؟! هـل نـاموا ؟! ربما وجدوا فى القرية خمرا ومثل هؤلاء المشردون لايعبأون بتعاليم القرآن ، لقدشربوا حتى ثملوا وربما يستلقون الآن على أرض الطاحونة « يشخرون » . إذا كان الامر على هذ النحو لسهلت مهمتنا ولوفرنا كثيراً فى الوقت وحفظنا أرواحنا .

« سيدى » ، وتنبهت ، كان صوت جريكو ولم أكن قـد شعرت بعودته ، وأجبت : « ماذا هناك »

ـــ حاصرنا الطاحونة ولم نجد شيئا ، والباب مفتوح ، ومضخة الطاحونة مكسورة والمـاء يتفجر منهـا على الارض ، ولا يستطيع أحد أن يدخل أو يخرج .

وهل عاد نستاس كذلك .

ـــ عاد هو أيضا .

ـــ حسنا ، ألم تسمع شيئا داخل الطاحونة ؟!

ـــ لاشيء .

واستدرت الى الرفاق . وكان الظلام على الضخامة من العمق بحيث لم أستطع أن أرى أحدا منهم ... الآن قد حان الوقت ، وناديت فى تفوق على سيفان وبلغنى صوته خفيضا : « أنا هنا »

ـــ ماذا تفعل ياسيفان ؟!

ـــ سنقتحم الطاحونة . وقلت أحادث نفسى . هـــذا مايجب أن نفعله ، أن سيفان على حق ... ودفعت بيدى اليسرى فى حزامى وسحبت مسدسى ببطء وأنا أشعر ملمسه البــــارد ، ثم ثبت قبضة السيف فى رسغ يدى اليمنى ، وتحركت تجاه الطاحونة ، على أطراف قدمى ، وكان الرفاق يتبعوننى ، ولـكننا كنا نتقدم فى خفة حتى أننى لم أكن أسمع وقع خطواتنا . ولم نلبث أن واجهنا باب الطـاحونـة المظلم كمدخل كهف ، وفى تلك اللحظة ، توقفت ارتعاشـات جسدى وبدأ قلبي يخفق فى سرعة ولـكننى لم أحس أى خوف ..

ووقفنا داخل الطاحونة لفترة طويلة دون ان نتحرك ؛ نمسك انفاسنا ونتسمع عبر الظلام ؛ ولـكن لاشىء يمكن أن يسمع . ولمستنى يد فجأة ومال البعض فوق اذنى ؛ وحدست أنه سيفان لاشك ؛ لقد كان من الصعب أن اتأكد ... لابد أنهم سكارى . . . ينامون أعلى الطاحونة . . . أو ربما ذهبوا ، والسلم الذى يقود الى أعلى لاشك يواجه الباب ؛ وشرعنا نصعـد السلم وأحسست بشخص على يمينى ، كان الشاويش سيفان ، وعلى يسارى رفيق آخر لم أكن أعرف من هو . . . وعند القمة « طقطق » السلم ، وأمامنا ارتفع شهيـــق ،

وتوقفنا بعد ان ووجهنا بخاطر واحد . . . ان الترك موجودون ، ينامون الا واحدا منهم وهو الذى شهق عندما « طقطق » السلم . . . وعلقنا أنفاسنا ولم نتحرك ، وعاد قلبي يخفق فى سرعة ، وأحسست شعورا غريبا ، ليس خوفا على كل حال . وفى مواجهتى كانت فتحات ثلاث ، وهذا شيء مألوف فى كل طاحونة وركزت نظرى فى الفتحات وأنا أتوقع كل ثانية أن ينعكس ظل فى الضوء الشاحب الذى يتسرب من كل فتحة . على أن السكوت شجعنا ، فلم نلبث أن صعدنا الدرجتين الأخيرتين فى السلم وكنت أسمع الآن تنفسا منتظما ، ولكن لم أستطع أن أحزر ، هل يصدر من الخلف أم من الجوانب . .

كنا تحت سقف واحد ، مع رجال قد ينقضون علينا كالوحوش فى أية لحظة ، وأخذنا نترقب فى حرص وبنادقنا على استعداد . . . ولكن على من سوف نطلق بنادقنا ؟! كان من العبث احداث أية ضوضاء وتجمدنا فى أماكننا ثلاثة فوق القمة ، والباقون على درج السلم وانتظرنا . . . ولم يكن أحد يستطيع أن يتحرك دون أمرى — ولم تكن لدى أية رغبة فى أن أصدر هذا الأمر .

ولكن . . العدو . . . الذى كان مستيقظا فى ركن من الأركان أحس خلال نومه المتقطع . أن ثمة حركات غير عادية تحدث فى سكون المكان الخرب ، وصاح صوت خشن بدى متوحشا ، بكلمات غير معروفة ، سأل سؤالا . . . ثم عاد السكون . . . ولم نزل ننتظر

وعلى حين غرة حدث شيء ما بعيد عن كل توقع كأنما هو حلم وخلف الفتحات الثلاث على الأفق الشرقى ، ظهر القمر خلف سياج من السحب الكثيفة ، ثم لمع كشعاع من الخوف ، وانسابت أشعة مثلثة فى ضوء القمر لتنير المكان ، وعبر هذه الأشعة ، ظهر شيء

مستدير وقاتم ،رأس بشرى . وفى نفس اللحظة انفجرت زمجرة كالرعد وعلى ضوء الطلقات ؛ بدى المكان كأنما يتنـاثر لافظا كل محتوياته ، ورأينـا بوضوح الترك السبعة يستلقون فوق الأرض ؛ والرأس القاتم ينفجر كالقوقعة محدثا صوتا قريبا من الانهيار . . . وامتلأت البناية برائحة البارود .

وللحظة بدى كأنما السكون يلفنـا فى الظلام مرة ثانيـة ، ثم حدث انفجار هز الطاحونة ، وقذف بى جانبا كالريشة ؛ وكان يملأ سمعى أصوات سيوف تلتحم ؛ وضربات سيوف فوق أجساد بشرية وحشرجات ثم انفجار نارى آخر مزق أحشاء الليل ، وفى الضوء الخاطف لمع وجه سيفان الراكز . . . كل هذا مر كعاصفة مفاجئة ، وأوقـد بعضهم ضوء واستبان وجه سيفان المحنى وهـو يوقد شمعة وعلى ضوء الشمعة أخذت ظلالنا تهتز على الجدران المظلمة .

كان الأعداء يرقدون جنبا الى جنب ، فى وسط بركة من دماء داكنة . . بعضهم يحملق فى ذعر ، وبعضهم فغرفاه وأغلق عيناه ، بعضهم ممدد وبعضهم قد أقعى وركبهم تقارب أفواهم . . . واحد فقط كان حيا ، وقف ينظر الى الرفاق فى ذعر وأسنانه تصطك ، ومن وقت لآخر دون أن ينظر الى أحد ، كان يطلب أن نبقى على حياته ؛ وكان غطاء رأسه قد سقط ورأسه الصغير المستدير منكسا ، ينتظر الضربة القاضية وعيناه أسفل حواجبه غارقة فى نظرة آسفة من العمق بحيث لا يملك الانسان نفسه من الرثاء له .

ونظر اليه الشاويش . ثم اقترب منه وضربه على ظهره بيده وهو يقول له فى صوت مرتفع : « لاتخف يارجل ؛ سوف لانصيبك بأى ضرر » .

ورفع التركى رأسه فى حزم دون فهم ، ووجد الكابورال بتنيلى أن عليه أن يخاطبه بالرومانية الركيكة التى لا يجيدها تماما قال اسمع ياهذا . . . لن نفعل لك شيئا . . . سنأخذك أسيرا ، وأسقط شفته السفلى فى احتقار ، وابتسم السجين فى خوف .

ولكن الوقت كان يتأخر ، حان وقت الرحيل ،وهتفت فى صوت مرتفع «دعونا نغادر هذا المكان» وصاح سيفان : نعم ياسيدى . . . لنخرج .

أسير . . . هذا هو ما كنا نحتاجه ، ومنه سوف نتعلم الكثير .

والسبعة الأتراك الآخرون ، هؤلاء الذين عبروا البحر وجاءوا ليموتوا فى مكان مقفر على ضفة مستنقع تركناهم فى الجزء العلوى من الطاحونة وخرجنا منها .

ارتفع القمر ، والسحب تتدافع سريعة لتعبر وجهه ، والبركة الصغيرة أمام الطاحونة تلمع كالمرآة بلا أقل حركة لتهتز وجهها .

وعندما بلغنا حقل الحنطة امتطينا جيادنا وأردفنا الاسير خلف أحد الرفاق . وقبل أن نسير أخرجت علبة تبغى وتناولت لفافة ثم أعطيت صحبتى وأنا أقول : هاكم بعض السجاير .. لقد أحسنتم اليوم صنعا .. على أن الشاويش سيفان تناول سيجارتين وأعطى واحدة منها للسجين وهو يقول : خذ أنت الآخر واحدة . ربما كنت تتوقعها ! وعند ما أخذها السجين فى خجل أشعلها له سيفان وهو يلتفت الى ويقول مبتسما : البائس .. ماذا يمكن أن يفكر فيه الآن وعندما تحركنا همس الكابورال بتنيلى : انه واحد من هؤلاء الذين يغتالون الجرحى ويسرقونهم .

لم يجب أحـد . ومضى السجين يدخن لفـافته فى إستمتاع وهو يصوب نظرة جانبية الى وجه سيفان الخشن .

وعلى المستنقع تحت إشعة القمر ، والخيـل تسير فى هـدوء والرجال صامتون .



فى المعركة

أعطيت الاوامر فى فيريتا للزحف على جـــريفيتا . ورفــع الشاويشية أنفسهم فوق ظهور جيادهم وبدأوا يصدرون الاوامر فى عبارات قصيرة . . وركب الضباط يتأرجحون فى سروجهم هابطين صاعدين فى تقدمهم لحقل المعركة وأخذ الفرسان يهزون أسلحتهم فى مرح والخيل جادة ساعية ورؤوسها تنخفض بين أعنتها حتى لتلامس صدورها وأطراف الرجال تهتز والايدى تحمل البنادق فى اهتزازات إيقاعية .. وعندما لاحت أرض المعركة ، خفت حدة الزحف ولم يعد يسمع غير اهتزاز الحديد الثقيل والصلب ،

تلك الليلة فى أغسطس كانت ظلماء ، والمدافع الثمانية والاربعين والخيل والرجال تقدموا تجاه العدو على طرق لا يستطيعون رؤيتها كأنما يتجهون الى شواطىء مجهولة ، والريح تهب من اليمين ، فى خيام العدو . وأحيانا تحمل لفحة حارة كأنفاس رجل مريض .

كان الجنود صامتين تبدو عليهم الحيرة . على أن فى قـــلوبهم تنفجر نار موقده وفى أعماق هذه القلوب ترقد ذكريات أيام ماضية بمرحها وأسفهـا . وفوقها ركام متـاعب الحـــرب والقلق ينساب كالسحب وثمة خوف قاسى يمزقها كوحش كاسر من خلف الظلام .

وعلى الطرق المخربة ، تحركت جماهير الجنود ، خلال الوديان

والحقول والخيول تصهل من وقت لآخر . ويرتفع صوت ثم يموت ليترك الفضاء يتجاوب أصوات الانفجارات ، ومن أماكن خطرة توقفوا ، وغلف السكون بحر الظلمات فجأة ، ومزق الليل هدير لم تلبث خطوات الجياد أن غطته وبدا كأنما اللهب المتوهج يرسل أمواجا عاتية لصاعقة مجهولة .

كانت خيام الترك قرب الطريق العادى وكان على المحاربون أن يتجنبوا معسكرات العدو بالالتفاف حولها قبل الوصول الى التل الذى يشرف على جريفيتا ، وربما سمعت أصوات تحركاتهم ، فالعدو كان يغلى بالقلق والخوف ، وعلى هذا ظل المحاربون طوال الليل يندفعون مهتزين فوق سروجهم فى طرق رديئة .

وعندما انبلجت تباشير الفجر المبكر وجدت المجاميع الصامتة من الجنود المتجمهرين حول المدافع أنفسها فى مكان جديد غير معروف .

توقفت الجياد ، وترجل الرفاق ؛ وعلى الفور بدأت تجمعات سريعة حول المدافع والمجانيق . واندفع الضباط ، بوجوههم الناعمة المليحة يتحركون هنا وهناك يصدرون الاوامر والشاويشية وهم يخلطون الاوامر بالنكات راحوا يحركون اذرعتهم كأنما يريدون أن يخلصونها من أكتافهم والجنود بياقات معاطفهم المرفوعة أحاطوا بالمدافع وأجهدوا انفسهم فى حملها وتصيبها مرفوعة ، ونظراتهم تتلصص الأفق الغرير حيث يختفى العدو ، على ان الافق المظلم لم تكن تصدر عنه ضوضاء ما ولم تكن تسمع وراثه حركة واحدة .

وأخذت الفئوس والمعاول تشق الارض لتقذف الى سطحها أمواج من طين التربة ، والرجال يتعثرون وينهضون ويجرون ويعبرون بعضهم

والمدافع تطل بفوهاتها السوداء تجاه تجمعات الترك .

على أن الكثير كان علينا أن نفعله ، والفجر الجديد المبكر ينساب على الافق الشرقي بالصباح الجديد ويكشف التلال والوديان بثوب رمادي . وكان الرجال يسرعون والخنادق تتسع ؛ وأكوام الرمال تصعد مرتفعة . وطلع النهار المضيء وظهر القادة من الجنود وجاء خيال للماجور بأخبار . وفجأة أطل شعاع الشمس وانعكس كالفضة فوق البنادق والسيوف وسكت الرجال لبرهة ، فبعد ليل بلا نوم نظروا الى بعضهم بدهشة كأنما لم ير الواحد منهم الآخر لفترة طويلة وكان من الواضح أن كل فرد يتوقع ضرراً لا يمكن السيطرة عليه وبين دقيقة وأخرى يخرج الضباط ساعاتهم ، بعضهم ينظر اليها بتفكير مغرق والبعض يدفعها ثانية وبسرعة في حافظته ليعود فيجذبها بعد ثانية واحدة ، وفي الساعة السادسة ، فجأة في الجناح الروسي ارتفعت حلقات الدخان في لون اللبن تغطي الصباح الوليد وهي تنسحب على الافق وزأرت دستة من المدافع خلف حلقات الدخان ،

وبعد الاشارة ، لمعت السيوف في جناحنا أيضا ، جناحنا القريب من الطريق الآتي من بلافنا وينتهي في بلجارين . إن العمل الذي بدأ بدستة المدافع لم يتم ولكن هذا لم يكن الاهمية بمكان ، كانت المعاول تحفر الخنادق والطوبجية يقفون حذاء مدافعهم والاوامر تصيح : «أطلقوا» وتقترب المشاعل من القذائف ، وفي غلاف من الدخان تبرق النار وتنفجر القذائف ، والجو يمتلىء بالقذائف المتفجرة والشظايا والضباط يرفعون «نظاراتهم المعظمة» ويوجهوها تجاه راديشوفو ومضارب القائد التركي عبد الكريم .

كان الماجور هادئاً يتحدث الى الضباط عن مدى النيران وتحرك

صغار الضباط وهم يسمعون القائد وانحرف الشاويشية وهم يصدرون الاوامر بلهجات خشنة للطوبجية . ومن ثم . . . زأرت المدافع مرة أخرى ، على الجانب الآخر ، جانب الترك الذى ملأ بسحب من الدخان أيضا . وبدأت رؤوس تلال بلغانا تنفجر وصاح شيريلا : « احذروا يارفاق ! إنهم يرسلون لنا هداياهم أيضا » وطبيعى كان سيل الهدايا يتدفق يصاحبه الصفير والضباط والرجال ينتصبون وعلى وجوههم شحوب . وبعضهم يحملق يبدو عليه الترقب .

ومرقت القنابل فوق الرؤوس . وتأثر الرجال جميعا وبدأوا يتحركون فى سرعة وينجزون العمل الذى يؤدونه . وهتف البنشاويش شيريلا : ياجهنم .. إن المرء ليرتجف منذ البداية . أليس هذا صحيحاً يابازامورجا (لقب يطلق على الغجر ومعناه سواد الشفتين) ماذا تعتقد ؟ وضغط شيريلا القلنسوة فوق رأسه . وأجاب الغجرى : ماذا اعتقد ؟ .. إن الامر كما تقول .

كان الغجرى طوبجى ، متين البناء ، أسمر البشرة ، غليظ الشفتين وتوتم وهو يمسك الشعلة بيده ويستقيم قريبا من مدفعه فى انتظار الاوامر ، سوف نهديهم بعض الاشياء الجميلة أيضا ، وكان البنشاويش شيريلا قصير متين البناء يميزه حاجبان كثيفان ينحدران على عينيه وصاح مرة ثانية : واحدة أخرى يا بنى .. أثبت . لاتتحرك . أنت يا بن المدفع . لا تتحرك والاقطعت رأسك واستعملتبا كقذيفة مدفع، نيروكول يارفيق هل أنت خائف .

وفى الحقيقة ، كان نيروكول على الرغم من أنه احتفظ بجسده الطويل منتصبا تعبر وجهه سحابة قلق ، هذا الى جانب أشياء جديدة كانت تحيى فى أعماقنا ،وجاءت قذيفة وانفجرت على بعد عشرة أقدام

فقط من الخط الامامى . وتناثرت الشظايا فى الارض فى غلالة كثيفة من التراب والطين . وظن شيريلا أن من واجبه أن يعلق بشىء قال : هذا هو الحال فى البداية دائما . هل تظنون أن النيران المتفجرة لم ترعبنى أنا أيضا ! ولكنى شيطان . أنا يارفاق شيطان أبدا .

وطبيعى كانت رائحة البارود تملأ أرض المعركة وزئير المدافع يقرقع فى الجو والرجال سيتحركون مسرعين حول المدافع فى الخنادق التى أخذت تتسع وتتسع كل دقيقة ، والضباط يتابعون مرمى قذائفنا بنظاراتهم المعظمة ويراقبون القذائف التى تتناثر على خطوطنا أيضا ، كانوا هم كذلك شاحبون ولكنهم يسيطرون على أنفسهم وقد بدأو يعتادون جو المعركة .

كان الجو يزداد دفئا . والمحاربون والذين يعملون فى الخنادق يضيقون بالحرارة وكانت القذائف تنتثر فوق رؤوسنا وهى تصفر وفجأة وقعت اثنتان صوبنا فى احكام بين العاملين فى الخنادق ، وملأ الجو انفجار كبير ، وتناثرت كتل الطين تختلط بسحب من الدخان ، وعندما انجاب الدخان كان الحمالون يتدافعون مرهوبين خارج الخنادق . واستلقى جندى ووجهه الى أسفل وقد طار منه ذراع وكتف . وثلاثة آخرون أخذوا يصرخون ووجوههم تنضح بالألم ونظر الكل إلى الدم ، الدم الذى لايزال يجرى ثم أداروا وجوههم تجاه العدو غير المرىء عند نهاية الافق ، العدو الذى ينثر الموت

وانفجر الضابط الثانى بيترارى ذو الوجه الصغير الناعم صائحاً فى صوت خشن وكان قد بقى صامتا : هيا يارفاق . دعونا نرفع هذه القذيفة . لنقذف بها الى الجحيم . أسرعوا يارفاق . واندفع الى جوار مدفع بازامورجا (الفجرى) وانحنى حذاء برميل البارود ثم

زحف الى الخلف وهو يعطى أمراً حازماً : « أطلقوا »

وأطلق الغجرى مدفعه ، وارتفع الزئير ورفع الضابط نظارته المعظمة الى عينيه . ولم يلبث أن صاح فى ظفروحواجبه تهتز : رائع رائع . . أسرع ، أسرعوا ياأبطال اسرعوا والا صلبتكم أحياء لقد أصابتهم القذيفة . . . هناك عاصفة من التراب ، لاتستطيع أن ترى شيئا ياشيريلا .

— سيدى

— أننى أريد أن أعطيهم مايستحقون ، هل تفهم ياشيريلا ... أنسفهم فاهم ؟! . . . فاهم يا بازامورجا . . .

— سيدى

— مستعد ؟!

— مستعد .

— اذن لاتتوقف . . . انسفهم وارسل بهم الى الشيطان .

وبينما كان الضابط الثانى بيترارى يزأر بصوته الخشن بلا توقف اندفع الرجال كالمردة ، وزأرت المدافع وصفرت القـــذائف ، وانفجر الدخان بقوة وأخذ يرتفع الى الهواء سحب كثيفة ، وفى الجانب التركى أيضا أخذت القنابل تتناثر أيضا بانتظام . . . وكان بعضها ينفجر فى الجو ، وبعضها يسقط فى الخنادق يحرق اللحم والعظام . وبالاضافة الى الانفعال المتزايد اختفت عوامل القلق التى كانت تسود النفوس فى بداية المعركة ، وراحت العيون تلمع والأصـــوات تخشوشن فى عتمة الدخان والشظايا . . . وعلى حين غرة ارتفعت همهمة على طول الجبهة : الامير .

عدل الضباط قلنسواتهم ، دفعوا صدورهم الى أمام وقـذفوا

بمنا كبهم الى الخلف ، وتتلقى الشاويشية وصغار الضباط الأوامر ، واخذ العمل مجراه المأثور . وحول المدافع كان من الطبيعى أن يكون العمل شاقا والجو كلفحات من الجحيم ، والرفاق قد ضاقوا بالحر فقذفوا بقبعاتهم ، والقنابل تعبر مصفرة قمة الربوة . . . الجميع يغطيهم العرق والتراب والدخان والانفجارات تملأ الجبهة وصفير قنابل العدو كموسيقى رهيبة .

وكان الأمير يدور ، تحيطه جمهرة من ضباطنا وجمهرة من ضباط أجانب ، وتوقف ينظر الى حركات الطوبجية ، ويحملق تجاه راديشيفو وخيام القائد التركى عبدالكريم ، ويتحدث الى هؤلاء الذين حوله ، وكلهم يبتسمون ويهزون رءوسهم قائلين : طبيعى ... طبيعى . بينما الرفاق يخالسونه نظرات جانبية وهم ماضون فى عملهم.

كان الأمير هادئا جدا ، يقف على بعد غير كبير ويتحدث بتأثر وتبادل لمدة كلمات مع قائد المعركة ، وبعدها اندفع يمر بجوار المدافع وقال نيروكول لبازامورجا الغجرى : ها . . . هذا هو الأمير ، هل رأيت كيف نظر الينا . . . وأجاب الغجرى : رجل جميل . . . وهو لا يخاف القنابل أيضا .

وصاح نيروكول « يخاف ؟! . كيف وهو أعظم منا جميعا ؟! » وعندئذ زأر شيريلا ، البتشاويش « خذ حذرك ياهذا ؟! » ودمدم بازامورجا : ها . تلك اللعينة ، تأتى مرة أخرى ، وأخاف ان تصيبنى شظية منها عندما تنفجر »

وكانت القنبلة السوداء تنحدر فى سرعة تجاه مدافعنا وهى تصفر واصدمت بحافة الخندق ثم ارتفعت ثانية وجوانبها تنفث لهبا ، وانبطح العمال والطوبجية جانبا وبازامورجا ينظر اليها بأعين مندهشة . وانفجرت القنبلة ، وعندما تعالى الدخان الكثيف بصق

الغجرى شيئا أسود وهو يدمدم : هذه القنابل تملأ فمك بالحنظل .
من المخيف أن تصيبك شظيــة منها ، انها تقعدك وقال نـيروكول
« لم توفق هذه ، لقد أصابت الأرض فقط »

ومرة أخرى راحوا يعماون بحماس ، الشاويشية يغرقهم العرق والضباط احمرت وجناتهم والضابط الثانى بيترارى لايتوقف عن الكلام ، فقط بازامورجا الغجرى ، توقف ينظر أمامـــه إلى السماء كأنما يتوقع شيئا ، وفجأة ، بعد انفجارين سمع صوته « لقد اتت يارفاق » وعندما ظهرت القنبلة تندفع الى اسفل لاحقهـــا الغجرى وجرى خلفها وقذف نفسه عليهـا ومد يده الســـوداء وأمسك كبسولتها بين أصابعه ، وصاح وهـــو يقف : هـاهى ، رسول الشيطان وضحك الرفاق ، والقنبلة قد القيت بـين المدافع ساكنة سوداء .

لم يكن هناك غير انفجار القنابل وصوت سقوطها ؛ وجحيم من الصفير والضجيج وسحب من الدخان ، وكان الواحد لابد ان يصيح فى جانب ليسمعه الآخر وتدريجيا ، عندما اعتاد الرفاق هذا الجو ، تفجر بينهم المرح ، وعلى غرار بازامورجا كانوا يندفعـون خلف القنابل ليمسكوا « بكبسولتها » قبل أن تنفجر . . وعندما توسطت الشمس السماء ، كان جحيم الحر قد بلغ ذروته ؛ واصبح كل الرفاق سود فى لون بازامورجا الغجرى الآن ؛ وعلى وجوه البعض منهم ؛ التى سودها الدخان ؛ كانت أصابع مطبوعة والبعض ينحدر العرق فى أنهار فوق جباهم وكانوا جميعا سريعى الأنفـاس يخرجون الهواء فى سرعة من بين شفاهم ، ولم تـكن هناك وسيلة للحظة راحة ولا ملأ فم من ماء عذب فقد أسن الماء فى «الزمزميات» ولم تـكن هناك رغبة فى كسرة من خبز أو حتى قطعة من لحم ، ما الفائدة ؟!. انهم جميعـا

يقتاتون التراب ورائحة البارود ، هذا هو غـــذاءهم ؛ وامتلأت أسماعهم بموسيقى عجيبة لم يسمعوا مثلها قبلا فى حياتهم . ياللرفاق ؛ ما اتعسهم .

وعلى اليمين ،كانت مدفعية الروس تزأر ،قذيفة وراء قذيفة تصفر وجبهتنا الثانية ذات الست والثلاثون مدفعا ترسل تقارير منتظمة وفى الجانب التركى كانت حقول المدافع تزأر فى استكانة وبطء كأنما يقولون : بسهولة ، بسهولة .. ان لدينا الكثير من الوقت ، والمائة مدفع على طول جبهتهم تزأر نافثة قذافها تنفجر فى غمار الدخان الأبيض ... دم ، دم ... درم بوم ... باف كأنما مارد عملاق يدق طبلا عملاقة بلا توقف والقذائف تسقط فى الجو كريح الخريف تصفر وتئز كأجنحة الطيور ، وبعضها يأتى كأنما يتأتى مفكرا ... وفى خنادق الترك . كنا نستطيع أن نرى الانفجارات وألسنة اللهب ومن جانبنا كان المرء يستطيع أن يرى غالبا ، وبالعـــين المجردة ، قذائفهم المستديرة وهى قادمة ، بعضها يعبر نا الى الحقـــول الخالية والبعض يسقط تجاه المدافع والرفاق ، واذا لم يتمكن أحـــد من إمساك كبسولتهـا قبل أن تنفجر كانت تنفجر فى سحابة كثيفة من الدخان تحفر الأرض وتنثر أشلاء الجثث وبعضها ينفجر خارج الخنادق فإذا هى تمطر التراب والشظايا على الجبهة .

ولم يعرف الضابط الشانى بيتراری السكون أبدا كانت شفتـاه تتحركان ، وعيناه تتقد ، ولسانه يتحرك كالجرس ويداه تتحركان ذات اليمين وذات اليسار وسيفه يتحرك معه إلى كل اتجاه والبتشاويش شيريلا كعادته ، غاضب نوعا . ساخط نوعا ، كان يجـــذب حاجبه الكثيف وينكت ، ونيروكول يضحك بخشونة وهو يحـــرك

شعلة متقدة ؛ وكلما انفجرت قنبلة من قنابل العدو ، كان بازامورجا ينفجر هو الآخر بالسباب . كان كل فرد يعمل أوتوماتيكيا كأنما أصابته حمى ، ولم يكن أحد يسمع صرخات الجرحى ولا الاختلاجات غير الواعية منهم اثى تقبات الضربات . وكان حمالو النقالات يروحون ويجيئون فى بطء والدم يختلط بتربة الارض ؛ والرفاق يدوسون بقلوب مفعمة الدم الذى سال من اخوانهم .

ومرالنهار منتهيا بعاصفة من النار والدخان . وفى الساعة السادسة بدى كأنما المدافع الزائرة قد تعبت من الزئير فصمتت دفعة واحدة وفى الجبهة كان الرجال ينظفون البنادق فى سكون ؛ وأخذوا يستقون الماء .

وأمام عينى بازامورجا ونيروكول اللذين كانا ينظفان المدفع ويلقون بالطين الذى ينثر فوق ثيابهما ، وأمام الرفاق المتعبون ؛ فى السكون الكبير الذى استفاض فجأة مرت آخر نقالة بيضاء تحمل آخر جريح .. كان الضابط الثانى بيترارى . كان صامتا وكان وجهه أكثر امتلاء ، وكان الغير يحملونه الآن تجاه خيمة الصليب الاحمر .

خنزير القوازق

وقرب نهاية أغسطس ، كان مشاتنا وفرساننا فى « دلنى أتروبول » بالقرب من الجسر البحرى فوق النهر « الفيد » وكان خط الجنود يمتد تجاه الشمال حتى «بيفولادى» وتجاه الجنوب حتى « دلنى دبنيك » حيث يعسكر فرسان الروس .

وفى ٢٨ أغسطس ، فى الساعة الخامسة صباحا ، وبعد أن بدأ الكشافون عملهم ؛ كان الطعام معداً ، والطعام الذى يستطيع المرء أن يحصل عليه يتكون من الحساء وعيش الذرة والبسكويت ... وكانت الجياد تتناول وجبتها من الذرة والقش والرفاق يمرون بينها يعدون السروج ويختبرون أحزمتها ...

كان الخيالة فى الجبهة الامامية ، أمام الجسر الكبير على نهر الفيد يتوقعون أخبارا عن تحركات الترك ، وفى الوقت نفسه كان الكوربورال نيكولاى بنتيلى وبعض الجنود قد كدسوا أكوام حطب الاذرة الى جوار نار كبيرة . وكان الجنود يتجمعون حول النار ينصتون لنكات الكاربورال بنتيلى ... وكان الجو صافيا وهادئا وضباب الصباح لم يزل معلقا فوق « الفيد » ...... وفى الخلف على حافة حقول الاذرة وعلى طول الطريق الوحيد الذى يقود الى « دلنى أتروبول » كان الفرسان يتقدمون فى صمت الصباح ... وهدوء

كبير يملأ الجو ... وتجاه الشرق تجمعت قطع من السحاب ، والضباب يتكاثف فوق سطح الارض وفوقها ثمة طيور تتنقل مغردة وألسنة من الضوء تنساب لامعة .

كان الـكاربورال بنتيلي يمزح مع رجاله : أنت ياجافريل لونجو ... أيها الوحش ، أنت على استعداد دائما أن تضيع نفسك وكذلك لاتستطيع أن تأكل كيزان الذرة ... أين عقلك يا ترى ؟!.. تخرج الى الحرب وأمعاءك خاوية ... ولـكن أنتظر لحظة ، لسوف تملأها ... سوف تفتح فمك ...

وهز جافريل لونجو الغجرى رأسه فى مرح ، ثم بدأ يتناول كيزان الذرة المشوية كان يمسك الواحدة بين أصابعه ؛ ثم يهز بها يده ثم يضعها فى فمه وينفخ فيها : أنها ساخنة جدا ياسيدى ...

ـــ أنت تظن أنها كذلك يارفيق ... انها جيدة جدا كذلك

وكان الجنود الآخرون يراقبون « كيزان الذرة » كأنما الامر مسألة حياة أو موت . . وكان الـكاربورال نيكولاى مهتما برجاله كان يرقبهم ... ثم يطلق بين آونة وأخرى مزحة تجعل البسمة تتألق على وجوههم ... وكان الضباط يتجولو بين شلل الجنـود ... كانوا يتحدثون عن بليفنا وأوبانز وأوسمان ، ويفتشون الافق على نهر الفيد بنظاراتهم المكبرة... ولم يكن هناك شىء ليرى غير أشبـاح الضباب ، وتدريجيا خفت ضحكات هؤلاء الذين يأكلون « كيزان الذرة » وترك الضباط نظاراتهم واتجهوا الى الجنود .

قال الـكاربورال بنتيلي : أننا نعد احتفالا كبيرا ياسيدى ..

ـــ هل تظن أن الذرة جيدة يابنتيلي ..

ـــ لا شىء يعادل الذرة ياسيدى ... انها منحة من عند الله ...

ـــ اذن أعطنى كوز يارجل ..

وتخير الكاربورال بنتيلى عدة « أكواز » من الذرة المشويه ودار بها على الضباط وقال وهو يعود الى مكانه : لقد شويت جيداً ان القوزاق لم يحصلوا على ماهو أحسن أمس وهم فى ترستنيك .

ـــ لقد سرقوا خنزيرا ... خنزير صغير ، ذبحوه ونظفوه ثم شووه ؛ أننى لم أرى أفضل منه بعد شيه ...

ـــ ماذا يارجل ... سرقوه ... ان هذا مستحيل ...

ـــ والذرة ياسيدى ... هل تظن أننا اشتريناها .. ثم بدأ من جديد يفرق كيزان الذره المشوية . واستأنف : خاصة والناس هنا أما محتاجين أو بخلاء وصاح صف ضابط يحمل اسم « الجرس » مزاحا لأنه لايكف عن الكلام أبدا : لقد رأيتهم ياسيدى بعينى رأسى ، يخفون الطعام عندما دخلنا المنزل ، ثم بدأوا على الفور يشتكون لأنهم لايملكون شيئا ، لاشىء على الاطلاق يملكونه للأكل ، وحيال هذا ماذا كان يمكننا أن نفعل ؟!

وقال الضابط وهو يقضم « الكوز » ؛ أنتم على حق ... ولكن القانون هو القانون .

وأجاب « الجرس » وساقاه منفرجتان ويداه تهتزان : القانون هو القانون، ولكن ماذا عن الجنود الذين يقاسون دون أن يقولوا شيئا . . هل يجوعون حتى الموت ؟! ثم بدأ يدور حول نفسه وهو ينثر حوله سحابة من الكلمات ، حتى احمر وجهه ولمعت عيناه ،والرجال ينظرون اليه بقلق وهم ممسكون « بأكواز » الذرة .. وكان الكاربورال بنتيلى يرقب وجه الضابط على نحو خاص وهو يهز رأسه لكل كلمة يقولها صف الضابط ، وقذف الضابط « بالقولح ».

وهو يبتسم قائلا : هذا حق .. هذا حق .. أنا أيضا جائع بشكل كبير ، ولقد أيقظت الذرة شهيتي أكثر من أي شيء .. دعونا نأكل بعضا آخر منها لنرى كيف يكون طعمها .. وعاد بتيلي يمر بين الجميع ويداه مملوءتان بأكواز الذرة ، وعندما فرغ من توزيعها عاد إلى مكانه وبدأ يضحك .. وســـأل الجرس (صف الضابط) : ماذا يضحكك ؟!

ـــ انني أضحك على خنزير الروس ياسيدي ..

ـــ حسنا ... ماذا عنه

ـــ كان الخنزير يدور حول البداية في بيت الفلاح ، وجمهرة من القوزاق يمرون ؛ ولست أدرى ، هل تبعهم الخـــنزير أم هم الذين حملوه بالقوة .. كل الذى أعلمه أنه كان « مطبوخا » في نقطة الحراسة الثانية .. والرفيق الذى فقد الخنزير ، جرى الى الجنرال بقدر ماتستطيع ساقاه حمله ؛ وشكى له قائلا إن القوزاق قد سرقوا كل ثروته .. خنزير كبير طيب يحبه كأخ له .. وأخذ يبكى بحرقة .... ياللتعس ، لقد تأسر الجنرال كثيرا له وقال : دعنا نتحرى .

وقد تحروا بالفعل .. ولكن كيف يستطيع المرء التحرى خلال هذا العدد الغفير من الرجال . . انهم لم يعرفوا شيئا .. ولكن كان هناك أسف كثير ،كان رجل قد مات من الزحف ، وغطاه الآخرون بطانية ، ثم أرقدوه وشمعة على رأسه وزهرة فوق صدره ، ومروا عليه جميعا وهم يرسمون علامة الصليب على صدورهم ويقبلون الزهرة فوق صدره ، وسأل الجنرال : ماذا هناك ؟!

ـــ لقد مات ايفان .. ياللمسكين .. شاويشنا قد مات..

ـــ ولماذا تكرمونه بهـذا الشكل .

— لقد كان رفيقا طيبا .. كان بطلا .. » وتأثر قلب الجنرال ووضع روبلا فوق صدر ايفان ليشربوا الفودكا تحية له ، وصاحب الخنزير أيضا أحس بالتأثر يملأ قلبه فوضع هو الآخر خمس كوبيكات ومضيا الجنرال وصاحب الخنزير ، فى طريقهما ، ولم يجدا الخنزير أبداً.

وسأل الضابط : وبعد هذا ؟!

وابتسم الكاربورال بتيلي وأجاب : بعد هذا ، أشترى القوزاق بروبل وخمسة كوبيكات فودكا وأكلوا .. ايفان .. شاويشهم .

وانفجر الضابط يضحك ضحكة كبيرة شاركه الجميع فيها ..

وكان صف الضابط « الجرس » يهز يديه وعيناه تكادان تبرزا من محجريهما ، وبفم مطبق كان ينحني ويداه تضربان فخذيه ، وكان الآخرون يبدون كأنما أحد يهزهم من أكتافهم .. زئير وراء زئير حتى الجياد بدأت تنظر مندهشة .. فقط كاربورال بتلى كان يبتسم وهو يقطب حواجبه مفكرا .

وفجأة ، على طريق بليفنا ، زأر مدفع فى فرقعة داوية .. وانقطعت الضحكات ، واستدار الضباط وبدأوا يستطلعون الافق وزأر مدفع ثان ، ثم تكاثفت الطلقات الداوية ، أخذت تنفجر واحده وراء الاخرى ، وفى بعض الاحايين تنفجر أثنتان أو ثلاثة معا وهى تملأ الفضاء باللهب .. وتدريجيا ارتفعت سحابة من الدخان الابيض على الافق ، وتلوت وتشعبت وهى تذوب فى الفضاء !.

دجاجات البلقان

أسقط القائد نظارته المعظمة بعد أن راقب الافق لبرهة من وقت . وعاد الى « ركنه » النار يتبعة الضباط .. كانت أكواز الذرة كلها قد اختفت . ووقف بنتيلي مفكرا الى جوار الحطب المشتعل وبين آونة وأخرى كان يرفع رأسه ويحملق فى جافريل لونجو الغجرى واخرج القائد سيجارة وأشعلها من حطبة موقدة مرت سريعة من يد الى يد ثم استدار الى الضباط وقال : حسنا يا رفاقى . ماذا سنفعل اليوم . ماذا عندنا نأكله . أستطيع ان آكل « إيفانى » كله .

وابتسم الضباط وهم ينظرون الى بعضهم وقال واحد منهم : ليس لدينا شيئا . ان التموينات لم تصل وليس لنا الا ان نتوقع وصولها .

وهز القائد رأسه فى يأس واستدار الى النار ثانية . الى الكاربورال بنتيلى وهتف : هل لديك شيئا تقوله يا كاربورال أليس لديك شىء تقوله لقائدك ؟

— سيدى . السرقة ممنوعة . هكذا يقول القانون !

— أنا ادرى بالقانون يارجل .. إلا إننى جائع .

وابتسم بنتيلى وهو يقطب حاجبيه وينظر الى لونجو نظرة لها معنى . كان الغجرى جالسا يستدفىء . وعيناه السوداون تلتمعان وهو ينقل نظره بين القائد والكاربورال . ثم اتسعت قسمات وجهه من الاذن الى الاذن . وهز بنتيلى رأسه له كأنما فهم شيئا . بينما

قال القائد : حسنا . هل لديك شيئا تقوله يا كاربورال ؟

ــ سيدى . ليس لدى شيئا . ولكنى أظن أن لونجو يعرف قصة كقصة « إيفان » . ونظر القائد الى الغجرى .

سارع جافريل يقول : لا اعرف شيئا يا سيدى . وتنهد وهو يمد رأسه ويحملق فى الكاربورال والخوف فى عينيه .

وقال بنتيلي : والآن .. لا كذب .. انه يعرف قصة ياسيدى .

وصاح الكابتن : على بها يا رفيق . هل تعرف قصة متشابهة أم لا ؟ .

ــ انا اعرف واحدة ياسيدى . أنا متأكد انى اعرفها ، ولكن دع كاربورال بنتيلي يرويها .

وتجمهر الجنود والتاويشية وصف الضباط . وعلى بعد منهم وقفت الجياد تمد آذانها وتنصت للضجة البعيدة . وجلس القائد فوق الحشيش وحوله الضباط وتنحنح الكاربورال ليسلك حنجرته

ــ حسنا .. سيدى أمس تبع رجالنا قطيع يملكه رجل قريب منا ، لعلك تذكره ، واخرج بعضهم نايا راح يعزف عليه وأخذ الآخرون يرقصون ، اشياء كهذه تحدث ، على ان البلقانى وهو أبخل أهل الارض لم يعطنا كسرة خبز أو حتى قطعة فطير الذرة . ان الناس فى موطننا يختلفون عن هذا ياسيدى .

وصاح صف الضابط « الجرس » : أنت مصيب . ناسنا يختلفون. واستأنف الكاربورال : وكما قلت . كان البعض يرقص ـ والبعض الآخر يبحث عن الطعام ـ والبلقانى يصيح « لا شىء لا شىء » ..

ولكن كيف لا يوجد شىء وأصوات الدواجن تعلو وقد ذعرت من أصوات الرفاق العالية وضجتهم ـ وصاح رجل من الرجال

لا اعرف من هو على وجه التحديد : « لتذهب الى الجحيم ـ ايها البخيل ـ سوف أعطيك درسا ». ثم اتفقا هو وجافريل لونجو.
صحيح ياسيدى ان جافريل يستطيع جمع البيض من تحت الدجاجة الراقدة.
دعك من الاستنكار . هذا صحيح ياجافريل .. وكما قلت اتفق زميلينا ـ الآخر وجافريل ـ وكأنما حدثت معجزة ، اذحدث أن تركت ثمانية دجاجات سمينة فناء البلقانى واختفت فى سرجى وسرج رفيق آخر .. والآن نحن فى حاجة الى بعض الشراب ياسيدى .. ماذا نفعل ؟ ! لقد بعنا البلقانى دجاجتين ، واعطانا النبيذ ، واخذ الدجاجتين واطلقهما عند الباب ، وفى الفناء كان لونجو فى انتظارهما بأذرع مفتوحة .

ولكن .. سيدى القانون هو القانون .. ماذا يمكن للمرء ان يفعل ؟ ! وتبعاً القانون كان على ان أعيد الدجاجات لمالكها .

وصاح القائد فى يأس : هل فعلت هذا ايها الغبى ؟ !

وعقب صف الضابط « الجرس » : هل اعدتها ؟ !

وقطب بنتيلى حاجبيه وابتسم قائلا : لا سيدى .. لم اعدها ولكن هناك مثل يقول : كل قانون يمكن التحايل عليه .. والآن لنرى ما يمكن ان يفعل هذا التعس لونجو بالدجاجات .. لست أدرى أين اخفاهما ..

وانفجر الضابط بالضحك ، ومرة ثانية حاكاه الرجال كلهم. كان يضرب ركبتيه والدموع توشك ان تنفجر من عينيه وكان الضباط يضحكون والرجال ايضا ـ ونهض بنتيلى على قدميه واتجه الى الغجرى وضربه بيده فوق كتفه وهتف :

ـ كيف حال الدجاجات يا لونجو ..

على خير حال « شـــكرا .. ثم انحنى تحت ضغط أصـــابع الـكاربورال على كتفه واستأنف ، انها تنتظر وحول أعناقها ربطة حمراء لتوضع فوق النار .. » وصاح الـكابتن عمل رائع أيها البطل كم أحب جنودا مثلك » .

وعقب الـكاربورال فى فخـر : نعم ياسيدى .. لم نشا أن نستاثر بالدجاجات .. هكذا يفعل الناس فى موطننا ، محاربون أشداء ولـكن قلوبهم شفوقة ..

ولم تلبث الدجاجات أن استقرت فوق ألسنة اللهب وهى ترسـل رائحة كنفحة سماوية ، وفى نفس الوقت كان الضباط يبللون حلوقهم ببعض الشراب .. الشراب المأخـوذ من البلقانى مقـابل الدجـاج وكانوا جميعا قد تفتحت شهياتهم برائحة الشواء والشراب.

وبعيدا جدا ؛ على طول نهر الفيد اختفت سحب الضباب وبزغت الشمس فوق ركام السحب لتملأ السهول بالضياء ـ وكـان القائد ينظر الى الدجاجات بحدة كأنما هى أعداء خطرون .



الفـــارس

استلقت ضفاف نهر «الفيد» صامتة ساكنة فى «عز الضهر» ولا حركة بين أغصان النباتات المتكاثفة حول الطريق الصغير على كل ضفة أحيانا تمزق السكون صرخة طائر «صياد السمك» وهو يحرك جناحيه الناصعين فى دأب وقد سمر فى مكانه فوق المياة ذات السطح البلورى ، وقد ينزلق صقر تجاه النبات الكثيف كالسهم ، ثم يسود السكون ولا حركة على الاطلاق .

وخلف أعواد نبات الحنطة واعواد الذرة فى الحقول كان الرجال ينتثرون وهم فى لهفة وترقب .. وبدت قلنسوات الترك للعيان يصاحبها بريق البنادق وهى تلمع ، فى معسكر عثمان باشا ، عندما تمزق السكون كلية فى الثانية ظهرا .. وبين آونة وأخرى كان الكشافون الرومان الذين يختفون فى حرص على هذا الجانب من النهر ، يخرجون الى الضوء فى حرص وهم يظللون عيونهم بأيديهم ويتفحصون الضفة المقابلة وهم يقبضون على بنادقهم فى استعداد ، ومن بطن الوادى العميق بدت طلائع مدافع «عثمان باشا» الضخمة تتجه الى الكوبرى المقام على نهر الفيد ، وامتطى الفرسان صهوات الجياد واختفوا من الضوء ، وضيق الجيش التركى مدى امتداده وهو يعبر الجسر الحجرى ، ثم عاد المـــدى يتسع فجأة ؛ وتناثر الجنود بعد العبور وأسرعوا فأخذوا أماكنهم على طول الضفة كما يفعل القناصة

وامتلأ وادى النهر الهادىء بالرجال ، وتمزق السكون بعدة حركات لا شعورية ، وكانت مقدمة فرساننا تتراجع . وفجأة من ناحية « ديلونى دينيك » زأر مدفع وارتفعت سحابة رمادية من الدخان وتفجرت ألسنة مربعة من اللهب فى جانب العدو وتصاعدت أعمدة متفرقة من الدخان الاسود ..وانتظم زئير المدافع واللهب أيضا وهو يتقد فى جناح العدو ويفتح الثغرات فى جبهته .

ولكن القناصة ركبانوا يقتربون يتبعهم الفرسان ، وتزايدت طلقات البنادق وهى تفرق الجاميع .. ثم اندفع مشاتنا ذوى القبعات الحمر فجأة من « ديلونى دينيك » ليغطوا رأس التل كنهر من الدم الاحمر ومن خلفهم الفرسان بثيابهم القاتمة .

وتكاثفت طلقات البنادق ، وكان جناح العدو يتحرك وكشافوهم يبحثون عن مكان ملائم ـ والخيالة يتجمعون ثم يتفرقون جريا على الجوانب .. ومن بين أعواد الذرة العالية فى وادى الفيد بدأت طلقات البنادق تعوى وسحب خفيفة كنفثات دخان «البايب» ترتفع فوق الحقول الخضراء ؛ واللهب العقير يتفجر وينتظم كضجة انهيار أرضى ..

وبدأ جناح العدو المهاجم فى الضفة قليلا يتقدم ؛ واتسع خط هجومهم ؛ وكان الجنود يتساقطون واحدا وراء الآخر مصابون بالطلقات والصرخات التى يرسلونها تضيع فى زئير المدافع ورعدها واقترب ضباطهم على عجل إلا أن اشتداد النيران أوقفهم...وتراجع القناصة وهم يتعثرون فى الحفر ، وتردد الضباط ثم توقفوا .

وفى هذه الدقيقة ، كان مشاتنا ذوو الرؤوس الحمراء ؛ يرسلون بتدافعهم صوتا عميقا فى الوادى .. والنهر الاحمر يتقدم كعاصفة

السيوف تلمع وهى مرتفعة ، والخيالة ينحنون على أعنة جيادهم والجياد تهز الأرض بوقع حوافرها وعاصفة من الهواء تمرق فوق الجناح المتقدم .

وعندما تفجرت الصرخات الوحشية ، تراجع فرسان الترك ، وفى حركة بارعة تجمع ذوى الرووس الحمر والفرسان وانقذفوا دفعة واحده على العدو وصفرت السيوف فوق الرؤوس ، واخترقت الرماح الأجساد البشرية ، واصطك السلاح بالسلاح ، وتوقفت طلقات البنادق والمسدسات ، فقط ضجة قواتنا المهاجمة وصرخات من سقطوا ، تنتظم كسيمفونية للغضب والحقد ترتفع إلى السماء .

واستدار الجناح الثانى المحطم ، وأخذ يتراجع بلا تنظيم تجاه الجسر المقام على نهر « الفيد » وذوى الرءوس الحمراء والفرسان يتعقبونه كالنسور ، واندفعوا الى المؤخرة عند الجسر ليفنوها كأنما هم عاصفة مدمرة ، وعلى سطح النهر طفى الرجال الهاربون وهم يندفعون إلى الضفة المقابلة ويختفون فى الحقول والغابات ، ولم تزل الطلقات تتناثر من جانبنا .

وبمضى الوقت ، اختفت الطلقات ، وكأنما الطلقة الاخيرة كانت تعنى شيئا من الاكتفاء ، وساد السكون مرة أخرى .

وفى هذا اليوم لم يصدر أمر بدفن الموتى ؛ وعندما أرست الشمس الغاربة أشعتها الذهبية على سطح « الفيد » ، والسكون ينشر أستارة تماما على الضفة الحزينة . . . وقتلى العدو كانوا ينتثرون فوق الحقول ، وبينهم ثلاثة من رجالنا ، اثنان من ذوى القبعات الحمراء وفارس واحد .

وكانت غابات الحنطة يسودها السكون وصيادالسمك ، تماما كما كان فى الصباح يصرخ عاليا ويضرب الهواء بأجنحته الناصعة وهو مسمر فى مكانه فوق المياه البلورية . . . ومن بعيد جدا تجاه الشرق تعالى قصف كالرعد واللهب كأنما يتنقل على متن الهواء ، وضوء الغسق يهبط رويدا ، والرفاق الثلاث يرقدون ؛ الرقدة التى لايقظة منها أبدا . . . واحد منهم ، من المشاة ذوى الرءوس الحمر ؛ يرقد ووجه الى أعلى كـكومة فوق الأرض ؛ ويده اليمنى قد قبضت على حزامه، واليسرى منضغطة علىصدره كأنما يريد ان يقبض بها على شىء ، والرفيق الثانى من المشاة يرقد على جنبه ورمحه محطم ويداه ممدتان الى جانب جسدهوأصابعه مطبقة ؛ وعيناه مفتوحتان متسعتان كقطعتين من الزجاج مثبتتان فى كراهية عبر الحقل الى الافق الشرقى والفارس عيناه مغلقتان يبدوأنه نائم ، ووجهه تجاه السماء ويداه مرتخيتان الى جانبه كأنما نزعتا من جسده ؛ وعلى الوجه الصامت الساكن ؛ والحاجبين والشارب كخطوط سوداء فوقه ، يلتمع ضوء الغسق كأنما هو أنفاس حلم .

وثلاثتهم يرقدون فى وحده يحيطهم خفيفأشجار الحنطة كأنما هو انشاء غريب لأغنية غامضة . . . والرفيقان ذوى القبعات الحمراء من أبناء المدن ، ابناء لبعض التجار فيما يبدو ؛ نشأوا وترعرعوا دون أن يعرفوا معنى للأسفأو الرغبة؛ وطافوا الكثير من المدن وتعلموا اشياء كثيرة ؛ ووالدتيهما لاشك تعتمدان عليهما خاصة وهما تعرفان أنهما سوف يعيشان حياة رغدة هانئة فى محلات تجارتهما ؛ الا أنهما قد تركا الوالدتينخلفهما؛وترك ثرائهما ليقاتلا من أجل بلادهما ، وقد ماتا ميتة بطولة ؛ ولم يعد بعينهما الثراء أو

أى شىء آخر . . . على أن ثمة مكافأة تنتظرهما ، كلمات طيبة ستكتب عنهما فى الصحف ، وسوف يمجد حبهما لوطنهما ، لقـــد تركا الأم والأب والثروة . . . وارتحلا . . . وسترفعهما هذه الميتة الى مقـام لم يكن ليبلغاه من وراء حياتهما المترفة الناعمة الراغدة .

أشياء كثيرة سوف تقـــال عن هـذين البطلين المجيدين . . . ولـكن أنت ، أيها الفارس المجهول ، لن يذكروك فى الصحف على أنك محارب مجيد ، فلم تترك خلفك ثروه أو ثراء ، انت فقـــير ومعدم ، واسمك فقط هو فاسيل بن تيودور .

لقد قاتل أبوك الحاجة طوال عمره وهو يضحك ولـكن بحـكمة . وعندما كان يضرب امك ، وعندما يراك تبكى كان يستدير ويصفعك انت ايضا ، وعندما يشعر بالتحسن كان يذهب الى الـكنيسة ليزيل أدران غضبه بالاعتراف ويستحيل بعدئذ الى انسان شفوق وقد نسى أسفه بطريقة ما ، واذا هو يقبل زوجته ويسألك ان تغنى وتلعب ..

وعندما استقام عودك بقى اخوتك الصغـار فى البيت ـ وذهبت أنت مع القطيع الى المراعى وتعلمت فيها ان تمرح وتغنى أشعـارا ساذجة وانت تعزف نايك .. وقضيت ليـال عـديدة بين النبـات الـكثيف على ضفة الغدير مع خرافك . وأوقدت النيران فى الاعواد الجـافة ومضيت تروى القصص على الضوء الشاحب وانت تصفر لحن الابطال الخياليين وصدى بعيد تتجاوبه الحقول .

وفى أعقاب الخريف ، كنت تعانى الريح والمطر ، وتجد نفسك وسط الزوابع والثلوج المتساقطة فى عنف وتمام . أنت نموت كما تنمو الحشائش البرية . لك شـكل ثور ، وخرير المـاء وحفيف أشجـار الغابة ، أغنيات انت تعرفهـا . وهى جزء من قلبك وقد كنت وفيـا ،

عملت فى قســـوة لتسد حاجة البيت. وتفتحت الحياة فى بيتك واستراحت أمـــك من الضرب الذى كان يصيبها دوما واستمتعت بالسلام والهدوء .

وزيادة على هذا ، هل تذكر يا فاسيل المرح ؛ يافاسيل فى قريتك فى ايام الآحاد والاعياد فى قاعة « إيوين سيكيرينو » أبو الست بنات عندما تمتلىء بالناس . وديماشى عندما يأتى مع زوجته الغجرية التى تحضر معها الـكوبزا (نوع من الماندولين) والفتيـــات ذوات الورود فى شعورهن والبلوزات المطرزة مصحوبين بالاولاد ذوى القمصان الخضراء والقبعات العريضة على قمها ريش . ويلعب ديماشى بالقيثارة كالحالم وزوجته الغجرية وعيناها تلمعان كأشعة الصباح الاولى تنحنى فوق الـكوبزا وتضرب أوتارها وتغنى فى صوت جميل قد يخرج أحيانا من انفها . انت تعرف جيدا كم كان يثيرك ان تقود الصحاب فى رقصة « الـــبراو » وكيف تصيح . وعندما يهبط الغسق ويزحف على القرية ؛ فصوتك وحده يلعلع فى هذا السكون تصاحبه انغام القيثـارة وأنين الـكوبزا . . وفى عتمة المســاء كنت ترقب الفتيـــات وهن فى الطريق الى بيوتهن تصاحبهن انغام القيثارة فى الحوارى المشجرة والظلال تتكاثف والضحكات والصرخات تتقاذف ثم يسدل الليل استاره وفى ساعات متأخرة ومن مكان بعيد مجهول تتردد انغام القيثارة أيضا .

هل يمكنك ان تتذكر يا فاسيل ، الفتيات التى سعدت معهن زمنا، كنت مغرما بهن . ولم تكن ترقص « البـــورا » إلا معهن وكنت تضمهن فى حرارة عندما تلقاهن فى البيوت فى الامسيات . ولكنهن عبرن حياتك الواحدة بعد الاخرى . ثم جاء حبك الاعظم ؛ غزا

قلبك جميعه واسلمك لأيام يحترق فيها كيانك وليال تخلو من النوم .

خريف .. وشتاء .. وربيع .. مرت على هذا الحب وكان الربيع أجمل مما كان قبلا . كان العبير أقوى من الورود والجو اكثر غموضا وحلاوة .. وفجأة وسعادتك لم تنتصف دقت طبول الحرب يافاسيل.

فى فجر النهار الذى سترحل فيه ، شربت مع الرفاق وصرخت فى ثورة وصحت فى كل وجه انك ذاهب لتحارب الترك . وحالما سقط الليل كنت مرتبكا ومحموما . وذهبت تلقى حبيبتك .. ومسحت الفتاة دموعها وبقيتما طوال الليل يحملق كل منكما فى الآخـــر .

وسألتك : أين تذهب ؟ ! وأجبتها : بعيدا جدا .. لأحارب الترك .. وعادت عذراءك الحبيبة تقول : ربما يحفظك الله وتحفظك العذراء فتعود ..

وشرعت تتحدث عن بيتك الجديد الذى سوف تبنيه ، وكم فدانا من الارض ســوف تحرث .. ثم عاد الصمت . والدقائق تمضى وتمضى وثمة شعاع يربط بين قلبيكما ، يزيد ويتفاحل ويتعاصف بكما كزوبعة . وفى الفجر عندما وجب رحيلك ـ واندفعت الفتاة تبكى بجنون وحرقة وامتطيت جوادك ورحلت ، وعندما أدرت رأسك من قمة الحارة ، لم تكن روكســندا تبكى ، بل مسندة الى الباب الكبير تنظر فى اعقابك .. وهكذا وصل حبك الى نهايته. لقد انضممت الى الفرسان بلا خوف أو أسف ـ كنت تعتقد أن كل إمرؤ لابد أن يدفع دينه للوطن ـ وكنت تعرف الترك وطغيانهم ووحشيتهم وقد لحقاك انت ايضا .. ربما حان اليوم ليدفعوا دينهم لك ولوطنك يا فاسيل .

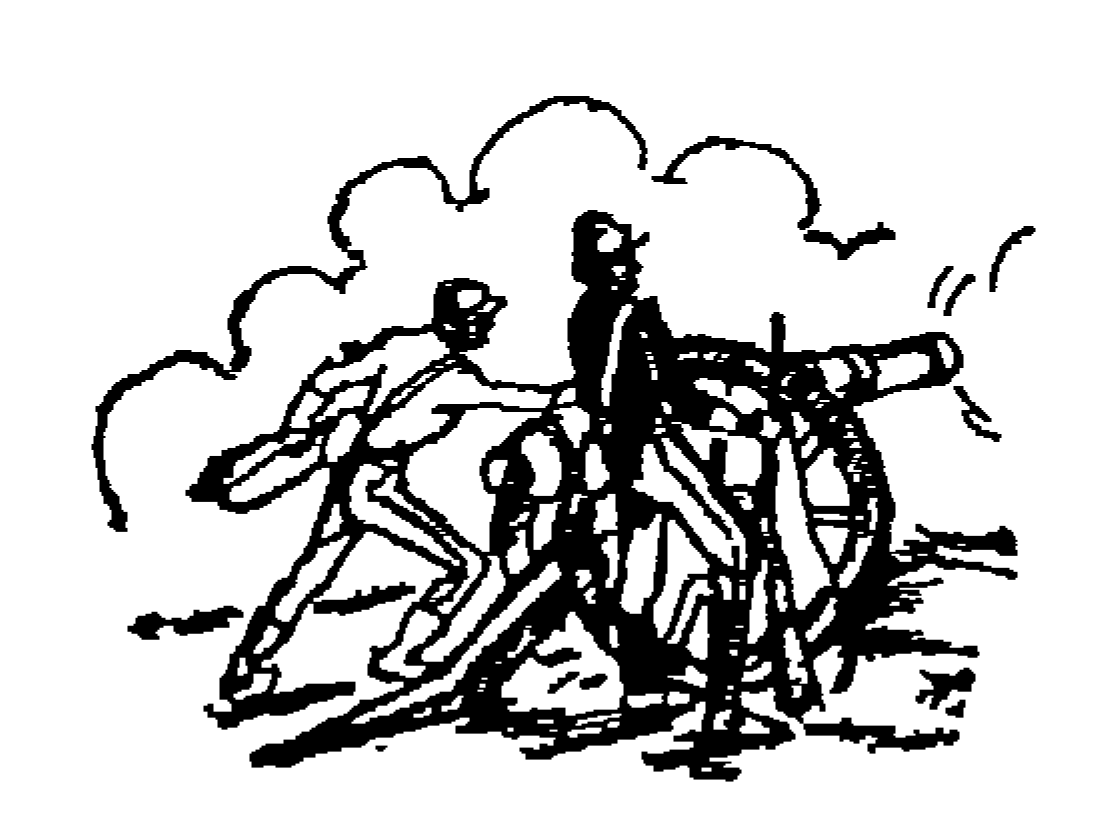
واخترقت الدانوب .. وسمعت زئير المدافع وبدأ دمك يغلى

ومرة واحدة وجدت نفسك تندفع الى المعركة ؛ وتهـــاجم الترك وتضربهم بسيفك ، ورائحة البارود تملأ رأسك ، وبدأت تتوحش يا فاسيل وضرباتك تشتد ، ثم استقرت رصاصة فى قلبك البرىء المحب ، وسقطت ممددا فوق الارض .. وغشيك النوم الى الابد .

وسيطر الليل ، لم يعد صيـاد السمك يصرخ ؛ فقط الريح كانت تصفر وهى تتلاعب بأوراق اشجار الحنطة . وأنت ميت يا فاسيل وفى صدرك لم يعد القلب الودود يضرب .

خلال حياتك يافاسيل .. لم تقسو بلاسبب ؛ ولم تؤذى الارامل أو اليتامى ؛ ولا جيرانك ؛ كان لك قلب نظيف ومت ميتة شريفة .

وفى قريتك .. سوف تعرف حبيبتك روكسندا أنك لن تعود ولـكن شيئا من أسفها لن يصلك فى مقرك الاخير ، وسيعزف ديماشى وزوجته الغجرية لأولاد وبنات آخرين ، بينما تستريح أنت فقد اتممت رقصتك .. وفى بعض الاحايين ، فى ليالى الشتاء ، النار موقدة والرقص يوشك أن يبدأ ؛ سوف يذكر أسمك رجال بقلوب نظيفة .. أيها الأخ فاســيل ، وسيتحدثون عنك بأصوات هادئة سيتحدثون عنك بأصوات ثابتة كأنما هى عاصفة تصفع صخرة عاتية



باب الجحيم

يا أصدقائى الاعزاء ... اليوم الاخير من أغسطس ، كان يوم الرعب والمجازر ، ولا يستطيع عقل بشرى أن يتخيل كميات الدماء التى أريقت فى هذا اليوم ، ولا عدد الرفاق الذين سقطوا ولن ينهضوا أبداً .

وكانت « الشبورة » الباردة تسقط فوق الوديان والتلال ، والارض رطبة وندية ، وعلى بعد ، ترتفع طلقات متناثرة فى الهواء والمدافع تزأر بين حين وآخر ، ولا أحد يعلم مصدرها تماما ؛ فقط الصفير الحاد للقذائف كصوت السوط فى الهواء يمكن أن يسمع ... لقد بدأ رجال فرقتنا فى الثالثة وقناصة الفرقة العاشرة يتقدمونهم. كان الجنود صامتون ، ووجوهم قمة ، على أن ثمة اصرار وحشى واضح يعلو وجوه الجميع ، وحرارة الترقب تملأ كل صدر ؛ والضباط الصغار اكثر ثورة ينحنون باستمرار على رفاقهم من الجنود ويلقون اليهم كلمات سريعة بأصوات خشنة ، ثم يرفعون صدورهم ثم يندفعون خلال الضباب ؛ وهم يربتون على مسدساتهم ويثبتون قبضات سيوفهم فى معاصمهم . . . وكانت معاطف الجنود وملامحهم تبللها قطرات الندى البيضاء . . . وكانوا يتقدمون عبر « الشبورة » الباردة . . . وفى نصف ساعة أشرفوا على قمة التل المرتفع ؛ وكان

السكون ضاربا ولا حركة فى خنادق الترك . . . ومن هناك ، من التل رأوا جميعا الوادى الذى لم يتوقع أحد منهم أن يراه ، وادى الدم .

انحدروا بسرعة ، ثم توقفوا ليعيدوا تنظيماتهم ثم بدأوا يصعدون القمة التالية . . . كان الصعود صعبا ، كانوا يتعلقون بالشجيرات ويستعينون بالسنكى ويتساندون كل على الآخر ، الا أنهم استمروا يتقدمون فى سرعة ويقتربون من القمة . . . وفجأة ، انفجرت أولى طلقات الطغاة فوق رءوس جنودنا تماما ، ركأنما صاح البعض « اثبتوا » ، على أنهم جميعا تقدموا اتجاه القمة فى حماس . والكشافون يتقدمون صامتين بقلنسواتهم الفرائية تنحدر فوق أعينهم وهراواتهم الضخمة فى أيديهم . واختفى الترك فى الخندق الأمامى خلف التحصينات .

وبينما كانت بنادق الترك تزأر فى سرعة ، والجنود المهاجمون يتصاعدون على جنبات التل ، شاهد الجنود شيئا غير متوقعا ، خندقين بدلا من واحد . خندقين يختفى فيهما الطغاة وتلمع الأسلحة الحديدية والموت الزؤام ينحدر اليهم كعاصفة .

ماذا كان يمكن أن يفعلوا ؟! . . . رفع الضباط أصواتهم « تقدموا » ، وتقدم الجنود بقوة ، ولكن بدى كأنما الخندق الامامى قد وقف على رأسه الى أعلى ، وظهرت ثلة من الطغاة ، وخلفهما ثلتان أخريتان ، وأطلقت البنادق سيلا من اللهب يحرق جنودنا . كانت عاصفة من الطلقات والشظايا وأمواج الدخان وألسنة من اللهب وهزيم الرعد ، كأنما قامت القيامة .. . واهتزت الأرض واهتز الهواء كأنما دوامة ، واندفع الجنود الى أمام كأنما أصابتهم جنة ولم يلبثوا أن تراجعوا مذعورين والارض قد غطيت فجأة بالدم



... رفع الضباط أصواتهم « تقدموا » وتقدم الجنود بقوة ...

وبقى الموتى فى الوحل منكبين فوق أسلحتهم ، ورفع الجرحى الذين سقطوا أنظارهم الحانقة تجاه « باب جهنم » هذا الذى يقذف الرعد واللهب وأدار بعضهم وجهه ملىء بالغضب والألم . . . وبعد هذا اندفعت ثلة أخرى من جنودنا لتهاجم الطغاة ، واستطاع الجنود أن يقتحموا النيران حتى أطراف الخندق ، وتتابعت زفراتهم الحارة قريبة جدا من وجوه الترك ؛ على أنهم لم يستطيعوا التقدم . . . وتراجعوا على جنبات التل ليستريحوا . . . لقد سقط ضباط وجنود كثيرون . وحملق الباقون كل فى وجه الآخر ، وعيونهم كأنما تنطق بأسماء هؤلاء الذين سقطوا عند القمة وبدأ الضباط يقذفون الطغاة بشتائمهم ؛ ثم صمتوا وهم يجلسون الى جانب الجنود من فصيلتهم . . . كان الجنود ينتظرون ، ويحترقون بلا كلمة .

وفى الرابعة ؛ سادت الرجال ثمة همهمة ، ورفع الضباط سيوفهم وخفض الجنود أسلحتهم وتناثرت الأوامر الخشنة من رتبة الى رتبة أقل منها ، واندفع الهجوم الثانى على الطغاة كأنما هو عاصفة ، ولكن عاصفة الرصاص تفجرت ثانية ، أشد قسوة ، وسقط من فى المقدمة من الرفاق تجاه عاصفة الدخان والنار ، ثم تقهقر الجنود مرة ثانية .

جلس الضباط متعبين ، واصطكت أسنانهم وهم يرددون لأنفسهم ببطء ؛ اسماء من سقطوا ، ومسح الجنود جباههم من قطرات العرق الحارة وتهامسوا وهم يتنهدون « : يالله » . هؤلاء الطغاة . . انهم يقذفون نارا من الجحيم ، عليهم لعنة الله . وتناثرت شتائم الشاويشية من بين أسنانهم وهم يبصقون على الأرض .

وبدأوا يتحدثون فى همس عن شجاعة هؤلاء الذين تساقطوا

عند القمة ؛ بعضهم قد قذف بنفسه داخل الخندق ليجذب رماة الترك الى سفح التل . . . ولكن سرعان ماقيد الغضب ألسنتهم ، وصمتوا وهم يترقبون . . . وفى الرابعة والنصف رؤويت قبعات الروس على قمة التل لينضموا الى الفصيلة المهاجمة .

وصاح شاويش « الروس قادمون » ونهض الضباط وتصايحوا « على أقدامكم يارفاق . . لا تستسلموا ، دعونا نريهم مانستطيع أن نفعله . » ووافق الجنود وهم يجيبون « الروس قادمون . . . ليس لنا أن نستسلم . لابد أن نسبقهم . »

وبدأوا هجومهم مرة أخرى . . . متقدمين كثيرا على الروس وعندما عادت عاصفة الرصاص تتفجر مرة أخرى صاح أبناء رومانيا « باللعنة » وتوقفوا . سقطت ثلة ثم تبعتها ثلة أخرى ، وتماوجت الفصيلة كلها ، وصاح الضباط « اثبتوا » فى خشونة ، واندفع الجنود مرة أخرى تجاه الخندق وبلغوا حافته ، ومن القمة ألقى الرماة ، الترك المذعورين أنفسهم فى جوف الخندق ؛ وبعضهم اعتلى الحافة وهو يرفع يديه تجاه السماء ؛ وخرجت شلل أخرى من الرماة من الخندق . وجعلت البنادق الأرضى تهتز والرفاق يتماوجون. كانوا جميعا فى جوف سحابة من الدخان والدم والطين ؛ وعيونهم تلمع فى حقد وكراهية ؛ ووجوهم شاحبة ووقفوا وأيديهم تقبض على أسلحتهم ولم يقولوا شيئا . . . وسحابة حزينة من الغبار تلفهم كأنما هى أستار الظلام ؛ وكان الليل يهبط باردا يغشاه رشاش المطر . . . وفى هذا الجو الآسى ؛ تفجر شعور فياض فى القلوب وشردت الأفكار الى الاخوة الذين تساقطوا فى الخنادق ممزقين بالرصاص ؛ ملتفعين بأثواب من الدم . . . لقد هرأهم البرد يرقدون

ورءوسهم فى البرد والطين وأيديهم تطبق على أسلحتهم وعيونهم، تحلق فى الأفق الداكن وسكون عميق كهذا الذى يسبق العاصفة يسدل على الفتيان .

كان المرء يستطيع أن يسمع طلقات المدافع على بعد ، والصرخات الضعيفة التى تتبع طلقات البنادق ، هناك فى مكان ما تحت الغسق . . . ثم جاء فارس ، ونهض الضباط وتجمعوا حول قائدهم . وبعد كلمات قليلة استداروا وهم يلقون بأمر أثار الجنود « اثبتوا . . . ان الجنرال فى طريقه الينا » وفى ضوء الغسق اقتربت ثلة من الخيالة فى معاطف طويلة . . . يتقدمها فارس فى ثياب سوداء وقبعته تنحدر فوق عينيه كان هو القائد .

وسأل الضباط وفى أصواتهم رنة فخر : هل أنتم على استعداد ؟!

ـــ مستعدون . . . ياسيدى .

وكان الجنرال لا يتميز عن الآخرين تحت ستار الغسق الداكن واصطفت الفصيلة على أرض موحلة فى صمت . . . وصاح القادة « مرة أخرى ياأولاد » وكان الجنود صامتون ، وقلوبهم قد تحولت الى صخر .

وفى النهاية ... هجموا للمرة الرابعة .

وفى هذه المرة كانوا مسرعين ، لدرجة أن الضباط لم يستطيعوا ملاحقتهم وهم يتدافعون تجاه القمة . . . وانحدروا الى الخنادق فى سكون ولكن بحقد وغضب حتى أن الأرض كانت تهتز . . . وثارت عاصفة من النيران ، لاأصوات بنادق ، ولكن انفجار كالرعد ، كأنما القمة بأجمعها قد إنفجرت وهى تقذف الموت والنيران . . . وبنت الطغاة ، وأيديهم تتجه الى السماء ومحاربوهم

يقفون شامخين وهم يصبون سيلا من النيران . . . وبعدئذ ، خلال ظلال الليل القاتمه الهابطة ، كان النهر الاسود من الرجال ينحدر يهز الأرض ، تقدموا مرعبين كالنقمة وهم يأخذون خطواتهم الأخيرة ودخلوا الخندق الأمامى وقذفوا أنفسهم على التحصينات ، وتسلقوها. البندقية لهانهايتان ، «الديشك» والسنكى ، والرجل له يدان ، احداهما بالبندقيـة ، والأخرى بالسنكى كالمخلب المدمر . . . كانت عاصفـة من الرصاص ، ثم قلت الطلقـات . . . وهؤلاء الذين كانوا يقفون على حافة الخنادق هبطوا اليها فجأة ، وتبعهم الرجال بعيون حاقـدة وهم يصرخون « ويكزون » على أسنانهم ، وهم يوجهون الضربات.. ولم يلبث أن هرب جنـود الترك من الخنادق ولـكن الحقد الصامت فى قلوب الرفاق لم يكن ليدعهم يفلتون . . . تبعوهم فى الحاح مخيف جعلهم يتساقطون كأنما الريح تعذبهم . . . والآن بدأت طلقاتنـا ، وأخذ الاعداء يتساقطون وهرب كثيرون ، وتمنطق رجالنا ببنادقهم وانحدروا الى الخنادق ليخرجوا البقية الباقية من جنود الترك الذين لاحصر لهم ، وقد كانوا يختفون وراء التحصينات .

وأوشك الضباط الصغار الباقون أن يجنوا من الفرح ، واحتضنوا بعضهم البعض ، هم يصيحون « : يارجل . . . رفاقنا الرومان . . . ياللرفاق . » ولم يستطيعوا أن يزيدوا . . . وكان الجنـود صامتـين شامخين . والليـل الأسود بضبابه ينحدر فى ثقل ، وحبـات المطر الرفيعة لاتزال تتساقط وظلال الألم كأنما تعز السماء الداكنة . . . وأوقدت المصابيح ، وتفتحت أضواءها كالأعين الحزينة الدامية فى الليل ، وفى أعمـدة النور ظهرت أشباح شامخة ، مجاميـع أخرى من الرفاق بعيون مفتوحه وفى صمت كانوا ينظرون الى أمام .

زأرت المدافع فى الوديان ، وعلى البعد كانت ثمة صيحة تسمع عبر الضباب ، وفى وقت متأخر من الليل ، ضربت خيامنا وأخذت مصابحينا ترسل ضياءها على القمة فى « وادى الدم » ; وعبر الليل بطوله كان الجرحى ينقلون الى المستشفيات ; وكانوا جميعا يقبضون على أسلحتهم كأنما يقولون أنهم لم يتركوها فى اللحظات الخطرة .

وبعد المعركة بزمن ; كنت متعبا ، وكنت أتماسك على ساقى بصعوبة وجلست بين اثنين من الكشافين، مضموما بينهما ،وتمشى فى جسدى دفء لذيذ وثقل جفناى كأنما حمل ثقيل . وثمة نمو حلو كان يشمانى ، وسقط سيفى من يدى اليمنى ; معلقا فقط برباطه . وخلال هذا الحذر ، كنت سعيدا لشجاعة رفاقى الفائقة . كنت أفكر فى هؤلاء الذين ينتظرون أنباء الحرب فى الوطن كله بقلق . كنت أفكر بشمس جديدة تشرق على الوطن العجوز . . . وأحسست بالدفء فى صدرى ، وقلبى يخفق فى ثورة وحبات من الدموع تبلل رموش عينى ، والدى هناك فى مدينة بعيدة من مدن مالدوفيا خرج لتوه الى الشرفة وجلس فى كرسى كبير وأخرج نظارته فوضعها فوق عينيه ثم تناول الصحيفة ليقرأ . وسوف يعرف أننى أيضا قد خضت هذه المذبحة وأمى ستخرج هى الأخرى الى الشرفة ، وعندما تبلغها أنباء المذبحة سوف تبكى ، وسوف يضع أبى نظارته فوق المائدة أمامه ، ويهز يديه والصحيفة أيضا ، ثم ينطلق يحدثها عن أجدادنا وشجاعتهم على أن أمى لن تسمع شيئا ، سوف تدخل باكية . . . وفجأة سمعت صوتا خفيفا « : هل هو نائم ؟ ! »وأجاب أمرؤ بجانبى فى صوت ناعم « : نعم . . . انه متعب هذا المسكين . » وعاد الصوت الآخر يقول « : حسنا . . . لقد أدينا عملا مرهقا

اليوم . . . لم تكن مزحة ، ولم يعتد عليها ، فقد اعتاد نوعا آخر من الحياة ، وهو ليس مثلنا . »

وسادت فترة من الصمت ، ثم عدت أسمع « : يا ترى . . . هل بقي أحد من أهل قريتنا ؟ »

ــ لا نحن الاثنين فقط . . . لقد كانت عاصفة رهيبة حقا .

ــ نعم يا أخي : وسوف يكون هناك عواصف كثيرة غيرها

ثم صمتنا لفترة ، ثم عاد صاحب الصوت المحاذي لي يقـــول : هناك في قريتنا .. لابد ان حفلات الرقص بدأت ، ولكنها لن تكون ناجحة اذا لم يكن الأولاد هناك . وستبكي البنات والزوجات والأمهات

وماذا تستطيع أن تفعل . هذا هو حال النسوة أبدا . قلوبهن ناعمة .. على أيه حال ان الأسف ينتابني كلما تذكرت أمي .

وعندئذ صمتنا ، ولم أسمعها يتحدثان ثانية ..



بانكويك

استمرت تمطر بلا توقف ؛ وندى الخريف والريح الرفيعة تهب وأحيانا تصحب معها سحبا بيضاء وترسل اقواسا قوية من الثلج . . وكانت خنادقنا ممتلئة بالمياه والوحل ، والارض اللعينة تنهار ، والجنود يقفون فى الطين ، الطين تحت أقدامهم والطين فوق رءوسهم والنيران لاتتوقف فى الليل والنهار وهى تقذف الحمم فوق جنودنا المتحملين وفى بعض الاحيان كانت البنادق تطلق رصاصها والطلقات تتناثر كالمطر وتعبر الخنادق وهى تئز وتصفر ؛ وكان الرجال يجدون الوقت بصعوبة ليتبلعوا « لقمة » من الطعام ، والخوف من الموت يرفرف فوق رءوسهم ، إذا ماسقطت قنبلة على حافة الخندق ؛ أو وجدت شظية سبيلها إلى الرفاق الذين يعملون فى توسيع الخندق ليموتوا فى بركة من دمائهم ، وكل بندقية تطلق ، وكل طلقة « تزن » كالنحلة ، قد تعنى الموت .

وتحت ضربات ريح الخريف المجنونة وتحت وقع قطرات المطر الباردة ، وفى مواجهة نيران العدو ، كان الجنود يراقبون فى يقظة ؛ وسلاحهم أبدا على استعداد ، فقد ينزلق الترك فى أية لحظة ، ولا يجب أن يهمل الترحيب بهم ... وكانت أحذيتهم العالية يغطيها الماء وهى تغوص فى الوحل ، وأقدامهم أوشكت أن تتجمد ، وقبعاتهم

الفرائية مبتلة من المطر ومعاطفهم يقطر منها ؛ وأيديهم حمراء وباردة وقطع البسكويت ابتلعوها مغطاة بالزبد ولم يشكو أحد ؛ جميعهم وقفوا فى مواضعهم بأقدام ثابتة ؛ قد تتجمد الايدى ولكنها لم تكن لتسقط السلاح ، كما تفعل بالطعام ، لم يكن أحد يهتم به كثيرا وكان البسكويت مبالا بماء المطر ليس رديئا ، لقد قاسوا كل هذا العناء فى صبر ؛ وكان يبدو أنهم صنعوا من حديد ، لامن لحم ودم .

وفى هذا الجو القاسى ، ترك الترك معاقلهم ، وهجموا على خنادقنا ؛ وكانوا فى هجومهم كموجات متفرقة ؛ وهم يتقدمون صوبنا كالمد الزاحف ، على أن الرفاق ظلوا ساكنين فى انتظارهم ، واستقبلوهم بالنيران ودفعوا فى صدورهم بعديد من السنكى المتعطشة ، وكانت القذائف تعبر رءوسنا من الخطوط الخلفية وهى تصفر وتنفجر فى صفوفهم لتنثر الموت فيها ؛ وتراجع الطغاة فى غير ترتيب ، مخلفين ثلل من موتاهم يسبحون فى برك من الدم .

وفى هذه الايام كان الرفاق ساخطين غير قانعين ؛ ألا يمكن أن ينتظر الترك يوما مناسبا لهجومهم ؟! ليندفعوا هكذا فى غباء تحت المطر والريح وكل رجل فى قلبه شجن وسخط .. على أن جماعة من الطغاة ، فى ليلة مظلمة ، اقتربت فى سكون من نهاية خندقنا ؛ وفى اللحظة التى أرسل فيها كشافنا صرخته ؛ اندفع الرجال فى سرعة تجاهه ، تتقدمهم السنكى ... وعند صيحة الكشاف ؛ صاح نفير كالصوت المتعجل يعلن التحذير .. ولكن الجنود لم يكونوا نائمين ، كانوا أبدا مستعدين ، وقابلت الفصيلة عند نهاية الخندق الهجوم بالموت المدمر ، وعلى لمعان السلاح شوهدت ثلل العدو على

بعد فى كفاح مستميت ، وانفجر ضوء قوى يأتى بظلاله الحمراء فوق المعركة ، وفوق الجنود فى الخنادق المظلمة ، ثم أعطى الضباط أمرا فى صوت خشن :

— أجهزوا عليهم ياأولاد ...

واندفع الشاويش إلى أمام وهو يزأر بالأمر ، وتسلق الجنود حافة الخندق وألقوا بأنفسهم على شلل الطغاة ... واختفت النيران ولم يعد غير ضوء المصابيح الحمراء تهتز فى الخنادق متعبة كليلة ... وعندما أعلن النفير نوبة التراجع ؛ قفز الجنود بثيابهم المبتلة على حافة الخنادق وسمعت أقدامهم وهم ينتزعونها من الوحل ويتقدمون متلاصقين فى ثقة .

وبعد ضجة التراجع ، هدأ العدو تدريجيا خلف تحصيناته ، ثم نزع ضباطنا قبعاتهم الفرائية ومسحوا العرق عن جباههم . وقال كابتن : « استعيدوا أماكنكم ياأولاد » . وبدأ الرفاق يتفرقون فى وحل الخندق . وكان ضباط الفصائل يحصون جنودهم ويتممون عليهم ، وعندما أنتهوا أعد تقرير ، سبعة جنود وشاويش كانوا مفقودين ... وزحف الرجال إلى حافة الخندق ليبحثوا عمن سقطوا وعادوا وهم يحملون ثلاثة موتى وأربعة جرحى ، ولكنهم لم يعثروا على الشاويش ، ولهذا تجمهر رجال فصيلته ورفاقه ليتخذوا قراراً .. كل فرد يعلم أن جافريل بانكويك هو صديق الشاويش فلورى الصدوق .. وكان بانكويك كمارد عملاق كالجبل بقلب شفوق لم يكن لأحد غيره فى كل الوطن الرومانى ، على أنه اشتهر بأنه جبان ولكن هذا مجرد مزحة بين الرفاق وكان جافريل نفسه يضحك منها

وهى تنتقل من أذن إلى أذن ... على أنه هو الآخر فى الحقيقة كان مضحكا ، وعندما كان يلقى مزحة،كان الرفاق فى الخندق يضحكون حتى ليوشكوا أن يقعوا على أقفيتهم فى الوحل .

كان بانسكويك يبدأ أولا بالسخرية من أنفه الطويل : « يامسكين ياأنا .. اذا لم يكن لى هذا الشىء المدهش المعلق تحت عينى ، كانت نهايتكم ... أن لى أنفا ضخما ... حماه الله ... أنه شىء مشرف أيضاً ... أنه يصل الى الترك بنصف ساعة قبلى ، هل تريدون كشافا أفضل من هذا » .

وكانوا جميعا يبدأون « التنكيت » على أنفه ، حتى ينال بانكويك كفايته فيلومهم فى شىء من سرور . « دعوا أنفى وشأنه ؛ يكفى هذا ، لسوف تجذبونها فتستطيل والله يعلم أن طولها هذا كاف تماما » .

وأحيانا كان بنكويك يغنى كلاسكاراش الغجرى لرجال الفصيلة :

زوجتى المسكينة ... أوه
أنها تتأوه لى هكذا .

وبابتسامة ساخرة على شفتية كان يتهكم على لاسكاراش وهو يشير فى خبث إلى زوار آخر الليل :

« فى الفناء الخارجى يقفون فى شلل
وفى الردهة يركعون مبتهلين »

على أن لاسكاراس كان يحك قفاه فى بلاهة والرفاق جميعا يضحكون على أن لاسكاراش ينفش ريشه كالغراب ويقول : «لماذا ... يارجل ... ألست صالحا كزوج مثلكم ؟ »

ويجيب جافريل : طبعا يارجل ، أنت رب بيت بثلاث حيطان والفناء يأكل الحيطة الرابعة ، ونوافذك يخرج منها الدخان ... »

بانكويك كان رفيقا طيبا بلاشك ، ولم يكن الرفاق يتعبون أبدا من الاستماع له ، وعندما يبلغ الجو أسوأ مداه ، والماء والوحل فى الخندق يؤلم العظام ، كان بانكويك يبدأ فى إلقاء مزحه ، فيزيل تقطيب جباه الرجال ويبعث المرح فى وجوههم .

ولكن هذه المرة لم يشعر جافريل بأن الأمر مضحك ، كان أكثر بؤسا ، وسواء كان الكاربورال فلورى قد مات ولم يعثر عليه حاملو الموتى ، أو أسره الترك وحملوه معهم الى خنادقهم ... من يستطيع التكهن ؟!

وكان الرفاق يتحدثون عن الاحتمالين ، ويقيمون شتى الفروض وهو صامت ساكن ، ويبدو كأنما ثقل كبير سقط فوق قلبه فلم يجعله يتنفس فى يسر أو حتى يتحدث ... وبعد برهة صمت الآخرون أيضا ... رجل فقد ، وتلك حادثة عادية جدا .

وفوق الرءوس . كانت سحابة داكنة مظلمة ترسل قطرات المطر ، والمصابيح تتوهج فى الظلام كنقاط من الدم . وخيوط رفيعة من الدخان ترتفع لتضيع فى ثنايا الضباب .

وساد الخنادق سكون ، فقط خطوات كشاف غير مرئى تسمع وهى تنز فوق الوحل وبعد فترة طويلة استدار بانكويك إلى الشاويش الذى يجاوره .

ــ ماذا تظن أيها الشاويش نستور ، ربما لم يبحثوا عنه جيدا .

ــ ربما .. ولكنى لا أفهم سر بؤسك .. أنا أعلم أن الصديق

له حقوق ، ولكن هذه هى الحرب.

على أن النفر بانكويك تمتم فى خشونة. لقد كان العالم كله بالنسبة لى.

— هل أعاد أمك إلى الحياة مثلا ؟

— لا . . أنه شيء أكثر من هذا . . ثم أضاف بانكويك. انا ذاهب لابحث عنه .

وداعب الشاويش نستور شاربه الغليظ ولم يقل شيئا ، بينما وقف بانكويك على قدميه وهتف فى صوت عميق : مر على الضابط الثانى أولا . وهز بانكويك رأسه موافقا ثم راح يخترق صف الرفاق واختفى فى الظلام .

وارتفع الصوت العميق ثانية : أيها الشاويش نستور ..

— إيه .. فيه إيه ؟ !

— لقد جئت من نفس القرية التى جاء منها الكاربورال فلورى والنفر بانكويك .. وأنا أعرف السبب .

— هل هم إخوة فى الدم ؟ !

— لا أيها الشاويش .. السبب شيء آخر .. شيء يتعلق بفتاة !

— حسنا .. لم أتوقع شيئا كهذا .

وعاد الشاويش يعبث بشاربه مرة أخرى ، وانتبه بعض الرفاق حتى لاسكاراش الى جانب طبلة ؛ فتح عينيه وفمه فى دهشة ، وأخرج المتكلم علبة تبغه وتناول منها سيجارة ثم قدمها للشاويش، ثم جذب من سيجارته نفسا عميقا جعل طرفها المتوهج يلقى على وجهه ظلا أحمر وهتف وهو يبصق من بين اسنانه : هكذا حدثت القصة .. أحب بانكويك فتاة فى قريتنا ، أحبها باعزاز ولم يكن هناك شك فى هذا الحب ، وقال لأبيها أنه يريد أن يتزوجها ووعده الأب العجوز بأن

زوجها له .. واتفقوا على يوم الزفاف وكتبوا بطاقات الدعوة . .
ولكن ماذا تظنونه قد حدث ذات صباح صاف ؟ !
الفتاة .. إلينكا أعلنت فجأة أنها لن تتزوج جافريل بانكويك
حتى ولو انقلب العالم ، إنهـــا تحب ديمترى بن كوستاش فلورى.
وصرخ الاب العجوز فى وجههـا وفعلت مثله الأم قائلين : إنهـــا
ستفضحهم فى القرية وأمروها أن تخفى هذا الحب ؛ إلا أنها لم تقبل
قالت لهما : أنهم قد يستطيعون ضربهـا أو حبسهـا أو حتى قتلهـا
ولكنها تحب ديمترى فلورى ..
وانتابت القرية زمجرة رهيبة إذ أن ديمترى وبانكويك صديقين
حميمين أكثر من شقيقين .
وأنا نفسى أتذكر اليوم الذى تواعدا فيه على الوفاء وأقسما عـلى
يكونا كأخـــين ، كانا لم يزالا صبيين يسوقان القطيع الى الوادى
ولست أعرف كيف سويا الامر فـيما بينهم ؛ والذى اعرفه أن
الكاربورال فلورى تزوج الفتاة ،. وكان بانكويك هو الذى فعل
هذا .. ويقولون أنه سأل ديمترى : هل أنت مغرم بها يارجل ؟
ــ نعم أنا مغرم بها
ــ إذا تزوجها يا أخى .. وربمـا استطعت أن تكون سعيداً
ثم قال للفتاة : إلينكا ، يافتاتى لقد أحببتك «كنن» عينى ، ولكن
لتغيرك فقد كرهتك حتى الموت .. والوضع هكـذا احسن ، تزوجى
الرجل الذى تهتمين به وكونى زوجة جديرة به فهو أخى وصديق .
وأوقد الشاويش سيجارته من الجندى وقال : لم أكن أعرف،
إذن بانكويك من هذا النوع ، وأجاب الرفيق المتحدث ليس لأحد
قلب كقلبه .

— ولكن كيف كان يعامل الفتاة بعد زواجها من فلورى ؟
— على خير ما يمكن . . ربما ظل يحبها ؛ ولكن الله وحده يعلم ما فى قلب الرجل .

وأجاب الشاويش وهو يهز رأسه : أنت محق .. ونفخ رماد سيجارته وكانت قد أوشكت على أن تنتهى ، وانتوى أن يقذف بها ، عندما امتدت يد لاسكاراش فى الظلام :

— من فضلك ياسيدى الشاويش ، دعنى آخذ منها نفسا .

وعندما رفع لاسكاراش السيجارة الى شفتيه جذب منها نفسا جعلها تتوهج وتلسع أصابعه وشفتيه .

وفى نهاية الخندق ارتفعت الاصوات فى الظلام . وتبعها صوت خطوات تئز فى الوحل وعلى ضوء مصباح شاحب ظهر وجه الضابط وقفز الشاويش على قدميه . إلا أن الضابط هتف وهو يحرك ذراعه أجلس .. ثم استأنف، « حسنا . . يبدو أن الترك قد وجدوا مخبئا أميناً هذه المرة يا رفاق » .

فسارع الشاويش نستور يقول : يبدو هذا يا سيدى .

— كيف تنامون .. لابد أن البردسيء ولا يحتمل . .

— فعلا .. ولكنماذا نفعل ؟! إنه الخريف ياسيدى ، وهكذا الخريف أبدا .

وجذب الضابط معطفه وضمه الى جسده أكثر ، وهو ينتزع أقدامه من الوحل ويبتعد ومن خلفه ارتفعت صيحات الكشافين واحدا وراء الآخر .

وعندما ساد السكون ، بدى جسد بانكويك الضخم وهويخترق صف الرفاق فى الخندق ، وهمس الشاويش نستور : إيه الاخبار

وهتف النفر بانكويك فى ألم : لا شيء وصمت كلاهما ، وساد السكون فى الخنادق ، والمطر يمكن أن يرى وهو يتساقط فى دوائر الضوء الشاحبة التى تبثها المصابيح ، ولكن لم يكن يسمع لسقوطه أى صوت فنقاطه تتساقط على الوحل وغابات القطن .

وأقعى جافريل بانكويك فى ثقل فوق كومة من الاعشاب وركز سيفه فوق ركبتيه وذقنه تعتمد على يديه وعيناه تحملقان فى الفضاء . وقال الشاويش : حتى إذا كان أخوك ـ ماذا يمكنك أن تفعل يارجل .. هذا هو الواقع .

وهمس جافريل : إن له زوجة وأولاد .

ــ سوف يعنى بها البعض هى والاطفال ، إن الله لن يتركها .

ــ لا ياسيدى الشاويش . لومات فلورى فستموت زوجته ايضا

ــ حسنا ، وماذا نفعل لها ، دعها تموت اذا مات زوجها .

وهز النفر بانكويك رأسه ولم يقل شيئا ، وأعد الشاويش لنفسه سيجارة أخرى ثم أضاف : يستحسن أن تستلقى على جنبك لتريح عظامك ، فقد تبدأ فى الغد رقصة أخرى .

ــ إن فى رأسى شيئا ياسيدى الشاويش ـ هذا ما يجعلنى متغيرا

ــ ماذا حدث يارجل ، خذ سيجارة ، اليك التبغ انه تبغ تركى

ــ إننى لا أدخن ياسيدى الشاويش .

وأشعل نستور عود ثقاب وأوقد سيجارته ـ وكان الرفاق قد أغفوا فى الظلام . . . فقط هما الاثنان بقيا مستيقظين .

وفجأة فى هدأة الليل ارتفعت همهمة واضحة ؛همهمة رجل جريح أستعاد رشده : لا تتركونى يا إخوانى . ونهض بانكويك وهمس مسرعا : فلورى . . إنه هو ، لابد أن زحمة القتال قد دفعته بعيدا

فسقط بالقرب من خنادق الترك .

وسأله نستور فى دهشة : هل تفكر أن تذهب الى هناك .

ـــ طبعا .. أنا ذاهب ياسيدى الشاويش ، وإلا قتله الترك كما ألفوا أن يفعلوا .

إذن أذهب واخطر الضابط ، لقد كان هنا قبل أن تأتى بلحظات .

ورفع لاسكاراش الطبال رأسه وقال : اترك لى نفسين ياسيدى الشاويش ، لاتدعه يذهب ؛ فهو لن يعود ، وهمس صوت : ولماذا تمنعه .. لقد سمع صوت فلورى ،فلماذا لا يذهب .

واتجه النفر بانكويك الى مصباح وتناوله ودفع به تحت معطفه واتجه فى بطء الى نهاية الخندق ، ومن خلفه نهض الرفاق واحدا بعد الآخر على أقدامهم ؛ ولبرهة راحوا يتحدثون فى همس ثم صمتوا ، وفى السكون سمعت الهمهمة الصادرة من العقب مرة أخرى « لاتتركونى يا إخوانى » .

وقال الشاويش نستور : أنه يعرف ما اعتاد الطغاة أن يفعلوا ، ولهذا يصيح طالبا المساعدة . . لو كان بانكويك يستطيع أن ينقذه . إننى لا أقوى على سماعه يستغيث هكذا ؛ ونهض الشاويش على قدميه واعتلى حافة الخندق وفعل الآخرون مثله ،واستدار الشاويش هامسا : لاسكاراش .. أنت معتاد أن تزأر كالحيوان المتوحش كلما رأيت شيئا يحدث ؛ فلا تحدث أقل صوت وإلا أرسلتك الى الجحيم .. افتح عيناك فقط واصمت ، وتنهد الطبال قائلا : سمعا ياسيدى الشاويش

ومضت فترة قصيرة ـ تكفى لتدخين سيجارة ـ ولا حركة على الاطلاق ولا حتى هؤلاء الذين يقفون على قمة الخندق ـ فقط همهمة تمزق سكون الليل .

ثم توقفت الهمهمة ، وفجأة ارتفعت ضجة صادرة من خنادق الترك ، بعض قناصتهم يخرجون من الخنادق .. وفى عتمة الظلام والضباب الكثيف ، ظهر ضوء مفاجيء ، وغمغم لاسكاراش فى دهشة : مصباح بانكويك

وصاح الشاويش : أسكت . وظل الضوء يلمع فى الظلام برهة ثم بدأ يجرى فوق الأرض . كان يتوقف لبرهة ، ثم يندفع فى سرعة ، كان كالشعاع الذى يلمع فوق مياه مظلمة .

وفى الجانب المواجه ، جانب العدو ، سمعت صيحات خشنة وفجأة أطلقت بندقية لتتوهج طلقتها ، ثم طلقة ثانية وثالثة مزقت الضباب. وفجأة انطفأ النور ، وقفز الرفاق فى خنادقنا على أقدامهم وهم يتمنطقون ببنادقهم ، وهمهمة غاضبة تسرى بينهم ، وجاءت الأوامر ، ألا شيء هناك وعليهم أن يبقوا هادئين .

وهناك ، قرب خنادق العدو ، توقفت الطلقات . . . وثمة أصوات ترتفع وهمهمات وطرقات مرتفعة كأنما هناك من يضرب الأرض بمعول ، ثمة حركة فى بحر الظلال ، ولكن شيئا لم يكن ليرى .

وبعد برهة ، سقط السكون ثانية الى أن سمعت أقدام تسرع صوب خنادقنا . وهبط الرفاق من حافة الخندق ، وبعد وقت قصير وفى بركة الدم التى ينفثها مصباح ، بدى جسد النفر بانكويك الضخم وهو يحمل شيئا .

وصاحت أصوات مأخوذة « لقد أنقذه » واتجه بانكويك الى مكانه ووضع الرجل الجريح ، وبيده اليسرى تناول المصباح من تحت معطفه ووضعه بالقرب من رأس الكاربورال الجريح . . .



وصاحت أصوات مأخوذه « لقد انقذه »

ن وجه فلوري أصفر وعيناه المغلقتان تحيط بهما هالات عميقة سوداء، ولكن من شفتيه المنفرجتان كانت الأنفاس الحارة، انفاس الحياة تتردد فى قوة .

ورفع جافريل بانكويك طرف معطفه ليمسح به قطرات العرق من فوق جبهته . ثم وقف صامتا يحلق فى الصديق الذى أنقذه من الموت ، ثم جلس قريبا منه ثم انحنى فوق فلوري وسأل فى صوت خفيض « هل تذهب الى النقالة .. أجب ياأخى » وفتح الكاربورال عيناه ثم عاد فأغلقهما ، بينما قال النفر فى بطء « انه يريد أن يحمل فوق النقالة . . انى لا أستطيع أن أحمله كثر من هذا » ومال فجأة على جنبه ، ووضع يده فوق وسطه،فوق منكبه . وكان نهر من الدم يجرى تحت معطفه ينحدر الى سراويله وقمة حذائه وينسكب فى مياه الخندق .

وصرخ لاسكاراش مذعورا « : يارجل . . . ساعدوه : انه يموت . . . يموت » واندفع ليسند رأس بانكويك وتجمهر الرفاق حوله ، ولكن لم يعد فى الامكان صنع اى شيء . فقد استلقى العملاق بطوله ثم ملت بلا كلمة .

وفى اليوم التالى . عندما أذيع التقرير . أشار الامر اليومى الى النفر جافريل بانكويك الذى أنقذ الكاربورال ديمترى فلورى من خطوط العدو ومات مقتولا بأربع رصاصات ، وفوق القبر الذى دفن فيه الجندى الشجاع ليرقد رقدته الأخيرة قرأ الامر اليومى . ولكن بانكويك لم يعرف شيئا من هذا . لقد رقد الرقدة التى لا أحلام فيها ولن ينهض منها .

ساعات السلام

فى اليوم التاسع من اكتوبر ، ارتفعت الشمس زاهية ودودة ، وتفرق الضباب وامتلأ الجو سريعا بضوء لامع ... وفى الوديان زادت شفافية الضباب حتى ضاع فى جو الخريف الصافى . وكانت المدافع تطلق فوق بليفنا وما يحيطها ... وفى كل مكان كان رجل يترقب كالحيون المتوحش والقنابل تحمل الموت معها . والجرحى يرقدون ووجوههم إلى السماء الصافية الزرقاء التى تشيع الراحة ، والموتى قد استراحوا راحة أبدية وما عادوا يشعرون .

وفى التاسعة ، خرجت من معسكرات الترك كوكبة من الجنود تحمل علم الهدنة الابيض ، وارتفع علمنا نحن أيضا على الفور فوق قمة الخنادق ، وتوقف صوت البنادق ، وسيطر السكون الشامل تدريجيا ، وثمة ألسنة رفيعة من الدخان تتلوى وهى ترتفع إلى الفضاء والهواء العميق امتلأ برائحة السلام وبدأ يلمع ... وذهل الرجال للحظات . وفى تحصينات الترك عند جريفيتا خرج بعض الضباط والجنود العزل واصطفوا على طول الخنادق فى مواجهتنا ... وفى خنادقنا أيضا ، خرج بعض جنود عزل أيضاً ووقفوا فى مواجهة الترك ... أولاد ساحرون ، اصطفوا كأنما هم فى عرس وقلنسواتهم الفرائية تلمع ، وعلى طول الأرض التى تفصل بيننا وبين الترك ،

كان هؤلاء الذين سقطوا فى المعركة فى أكوام لاحياة فيها . كان فيهم كثيرون من جنودنا ، قذفت بهم النيران إلى الارض بلاحياة ؛ وظلوا فوقها لأسابيع واختلطت أجسادهم بالوحل تحت السماء المطيرة ... ظلوا وأسلحتهم إلى جوارهم فى سكون مغرق وليل عميق ... أيام وليالى مرت ؛ وغاصت أعينهم فى محاجرها وأصبحت وجناتهم بلون الارض ، ومن فوقهم زرافات السحب الملونة المشحونة بانهار من المياه تعبر الهواء . والرصاص قد أخذ يتناثر حولهم والمدافع تزأر ورفاق آخرون قد تساقطوا فوق الجثث المتخشبة لم تعد لهم الآن رغبات ؛ وفى مساقط رءوسهم فى القرى البعيدة يجلس الرجال العجائز والنسوة المسنات يذكرون أبناءهم ، ويتنهدون وينتظرون فى صمت ... ورياح الخريف تهب فوقهم وتعزف أغنيات حزينة من شطئان بعيدة ... قد يكون لدى الرياح ماتود أن تقوله ، إذ هى قد داعبت حواجب الموتى فوق عيونهم ،إلا أن العجائز فقط يستطيعون الانتظار ، دون أن يعرفوا أن البيت سيظل مهجوراً...عشش الغرام هذه ؛ الوديان والماء فيها يغنى خريراً ؛ والغابات تغرق من أشعة الشمس ؛ لن تسمع أبدا غناء هؤلاء الذين لن يعودوا اطلاقا ... أنهم صامتون ينتظرون .

والآن ... تحت ضوء الخريف وأشعة الشمس البراقة ؛ بدأ حمالو النقالات والأطباء يتجولون ؛ ويقفون إلى جوار كل ميت ؛ ويرفعونة فى عناية إلى النقالة ويحملونه إلى خنادقنا ... كان هناك موتى من كل نوع ، موتى برءوس مهشمة سوداء ؛ وموتى بوجوه زرقاء ؛ والبعض يرقد على ظهره ، والبعض الآخر متكوم على نفسه ورءوسهم فوق صدورهم ، وراح الحمالون يتنقلون فى إنتظام بغيض .

وحمل موتى الترك إلى أرض فضاء بين المعسكرين ؛ وجاء حاملو نقالتهم ليحملوهم ؛ وفى ضوء النهار الواضح كانوا جميعا يتحركون فى بطء ويتحدثون فى أسى ؛ وهنا وهناك تصادفهم جثث لا يمكن أن تحمل فإذا هم يحفرون قبرا فى نفس المكا ، ويدفعون فيه بالجسد بمعاولهم ثم يهيلون فوقه التراب . ولا أحد يعلم من كان الرجل ي لا اسمه ولا من أين جاء .

ووقف جماعة من فرساننا فوق كومة من الجثث ، جثث رفاق لهم ؛ كل الرفاق المحاربون سقطوا ووجوههم شطر العدو فى عمار المعركة وكلهم كانت عيونهم مفتوحة كأنما تبحلق فى فوهات البنادق التى أرسلت طلقاتها القاتلة . وبين الجنود الذين سقطوا فى الوسط تماما.. شاويش ..أجفانه مطبقة فوق عينيه المتعبتين أطباقه..الموت . وهتف رفيق فى صوت خفيض : هاهو الشاويش اكساتى ... أى نوع من الرجال كان يا أخ ... ان المرء لم يكن ليتضايق منه كم قص علينا قصصا مسلية فى الخندق فى الليالى العاصفة الممطرة ؛ عندما كانت قلوبنا تمتلىء بالقلق والأسى . وأجابه آخر : صحيح ... أنه من قريتنا . وكان مخطوبا لأبنة العمدة ، ليحفظ الله روحه .

وكان الشاويش اكساتى ينام بلا صوت ؛ وفى رقدته السوداء اللانهائية ؛ ربما ظل يفكر فى ابنة العمدة الحبيبة ، الفتاة ذات العيون السود ؛ والرموش السود أيضا ؛ التى كانت حبيبته فى الايام الماضية وصاح صوت ملىء بالتأثر : وهذا هو بن العم نستاس أيضا ... ماذا تقول العمة روكسندا عندما ترانى عائدا وحدى ... وها هو

إيلى بن تيودور باديورارى. وفاسيل بن بانزارى ... وتعرف الاحياء على الرفاق الذين شاركوهم مصاعب الحرب ، والاصدقاء القدامى الذين عبثوا معهم وهم أطفال فى الوديان والسهول عبر الوطن . وكانت الاصوات حبيسة والكلمات نادرة بلا اندفاع أو أسف . القلوب قد أغلقت فى وجه الاسى . لم يعد الرجال يهتزون أمام الموت.. .غداً سوف تهب عاصفة النيران من جديد : وآخرون سوف يتساقطون ليناموا الى الابد كابن العم نستاس والشاويش اكساتى ... وفوق مشهد الموت ولحظة العدم هذه كانت الشمس لم تزل تصب أشعتها الوهاجة .

فى بليفنا ، ساد السلام ؛ من حولنا ساد السلام ، ومن الارض التى تصبح فى الدم والمطر ، فى الوديان ، ارتفعت خيوط رفيعة ؛ ترى بصعوبة ، من الدخان ... وتحت الكتل البيضاء من السحب فى السماء الزرقاء المصعدة ، رفع الرجال رفاقهم وحملوهم الى خنادقنا وكل حياة انتهت هناك ، فوق تربة غريبة . وبقيت لتدفن فى أرض غريبة تركت السعادة . وتركت الاسف خلفها .

أيها الرفاق الشجعان ذوى القلوب الرحيمة ؛ أيها الخيالة ؛ تحت زحفكم إهتزت التربة الغريبة ، أنتم أكثر الناس صلاحية لتقاسوا وتفوزوا وتتركو البيوت ذات النوافذ ، والدموع خلفكم ، إلا أن شجاعتكم هذه الخيالية ، قد دفعت السحب القاتمة من فوق سماء وطنكم ... والسلام معكم يا أخوتى ...

وفى عجلة حفرت المعاول والفئوس والقبور خلف التحصينات ورقد الرفاق واحدا جنب الآخر ورفع الراهب صوته ومضى

يقرأ صلاة الموتى .. وسيطر السكون على الارض كأنما هى كنيسة كبيرة ، وصمت الجميع . فقط صوت الراهب كان يتردد متقطعاً: « لعلهم يرقدون فى سلام . » وصفر عازف ناى خلف الجنود . وهو يصاحب الصفير بحركات من يـــده وارتفع نغم الموت الحزين إلى السماء ، ثم انهارت الارض فوق هؤلاء الذين ناموا إلى الابـــد ، امتلأت القبور وعزيف الناى غير المرئى تلاشى .

وفى الجانب الآخر ، استمر حمالو النقالات يحملون الموتى ، وأخذ الضباط يستحثون العمل ؛ ويلاحظون صفوف الجنود الذين راحوا ينظرون كل الى الآخر على بعد عشرين خطوة ... ثم .. . فى شمس الخريف الدافئة ، تقابلت أعين العدوين ؛ وابتسم الضباط الترك لضباطنا ،وتبادلوا التحية ثم اقتربوا ، كانوا جميعا نظيفى الثياب كأنما هم فى أجازة ، وكانوا يدخنون كما يفعلون فى ايام حيـــاتهم العادية ؛ ويبدو عليهم كأنما هم يعدون انفسهم لحفـلة . . . وظـل الجنود صامتـين لبعض الوقت . ثم قذف احد جنـــودنا الآخرين بنكـــتة ، وانسابت ضحكة مرحة بين الجنود ، تبعتها نكتة تركية بلغة رومانية مكسرة ثم عادت الضحكة المرحـــة تنساب ، ثم قذف كاربورال بعلبة تبغ وقذف آخر بعلبة بسكويت ، وابتسم الجنـود الترك ليكشفوا عن اسنانهم بطريقة ودية ... واتسع تبادل الكلمات ومن الجانب الآخر جاءت السجاير والهدايا التركـية الأخرى . وصاح كاربورال أشقر تتفجر عيناه بالحياة : افندى ... بيه ... أفندى . . . » وأجابه تركى بلحية من الجانب الآخر قائلا : « افالا »

وعاد الكاربورال ينطق بعض الكلمات التركيـة بطريقة مرحة ثم خلطها ببعض كلمات رومانية . ووقف الترك وهم لا يفهمـــون

كلمة . وسأل الكاربورال : ألا تفهمون ؟! »

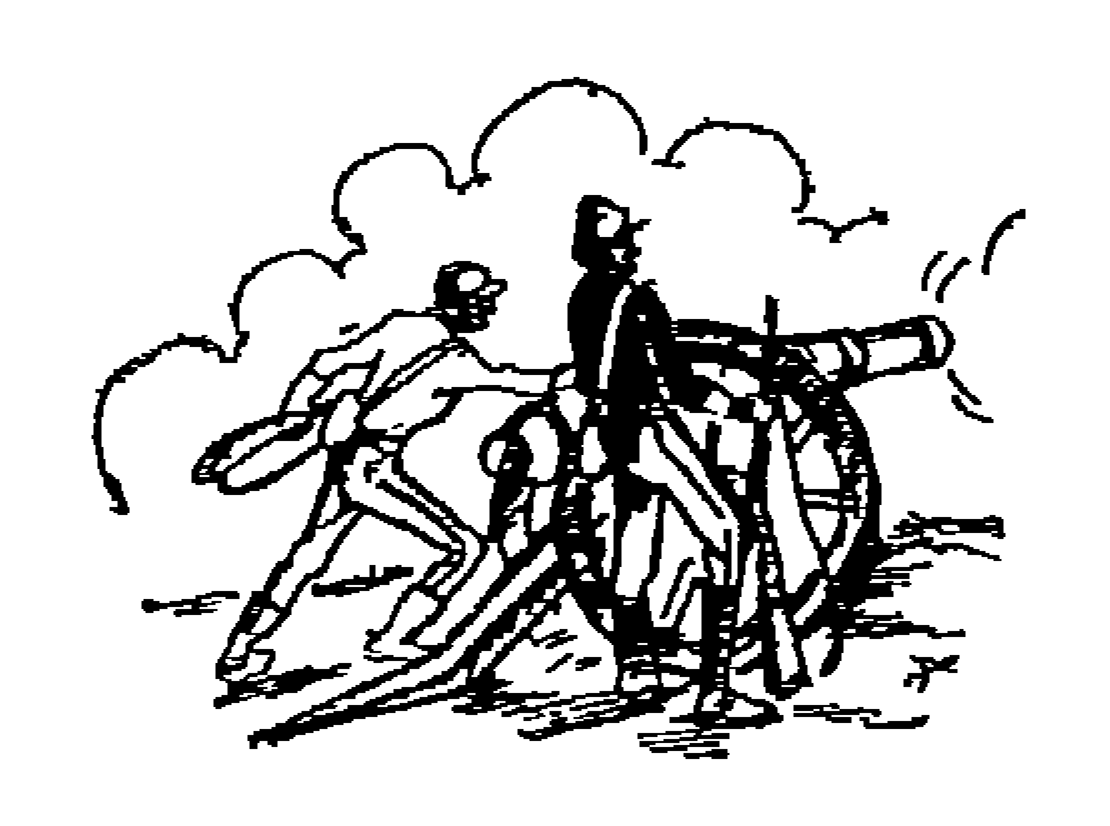
وضحك الجنود ، وفتح التركى فمه يعبر عن سروره وأمسك بغليونه وقذف به الى الكاربورال الذى صاح بهمهمة غير مفهومة وانفجر الترك ضاحكين ، وعندئذ تفجرت الصداقه فوق الجميع ... ووقف الكاربورال الذى يتحدث التركية فخورا كأنما هو « باشا » ومن وقت لآخر يقذف كلمة تثير عاصفة من الضحك .

وانتهى العمل عند الظهر : واستدار الضباط الى ثلل الجنود وألقيت الاوامر فى الجانبين ، ودخل الجنود خنادقهم ، وتبع ذلك دقيقة من السكون والهدوء . وتماوج علم الهدنة الأبيض ثم نكس فى الخنادق .

وتحت شمس منتصف النهار فى خطوطنا . ارتفعت سحابة من الدخان الابيض تجاه السماء . وقصفت المدافع وهى تلقى قذائفها فوق خنادق الترك . وفتح الرماة نار بنادقهم . وأخذ صوت الموت العاصف يردد فى التلال والوديان . ووقف الجنود فى الخنادق وهم أكثر تفكيرا وأكثر صمتا منهم فى أى وقت آخر ، فقد كان يوما خريفيا رائعا صافيا لم يروا مثله لوقت طويل وزحفت أفكارهم عنوة الى بيوتهم وقراهم .

والقنابل فوق حافة الخنادق ، تسقط وتنحدر . والشظايا تئز فوق رؤسهم ، ويحتموا منها فقد اعتادوا تماما هذا النوع من الضيوف ... ولكن عندما حان المساء زحفت سحب سوداء من ، الغرب ، وغرقت الشمس فى بحر من اللهب ، وفى الغروب بدأت ريح خشنة تهب . وعندما سقط الليل كانت ريح الخريف تعزف عزيفا رهيبا

فوق قمم الخنادق ؛ ورعدت المدافع كأنما هى خائفة ، ومرت القنابل كألسنة اللهب فى الهواء الأسود : وفى الخنادق كان الجنود يقظين تماما : صامتين قريبين جدا من قبور أخوتهم . وعازف الناى المجهول فى ركن ماقد وضع يده على فم الناى وراح يعزف نغمة ناعمة ، أيقظت ذكرى الاغانى فى جبالنا .



فى المستشفى

كان الليل ينحدر ، والحمالون يتجهون بى الى مركز الاسـعاف فوق نقالة ، اذ أصابتنى خلال الهجوم الأخير على جريفيتا شظيـة ألهبت ركبتى . . . لقد سقطت كأنما قطع سكين لحمى ورأسى يدور . . . والآن كنت أفتح عينى الملتهبتـان ، مأخوذا بالأصوات حولى ، ولم أكن أشعر بساقى اليمين فيما تحت الركبة ، ونوبة من الحمى تغطى جسد بالعرق وزئير المدافع فى الوادى ، يرسل الشهب تتفجر ثم تموت والبنادق تدوى على بعد .

استلقيت على ظهرى ، محمـوما أرتجف ، وأمام نقالتى وخلفها كنت أستطيع أن أميز جرحى آخرون محمولين الى الخيام . . . ومن وقت لآخر ، كانت الوجوه الشاحبة ، وجوه الضباط والجنود تظهر قريبة وأحيانا كانت تمر جمهرات كبيرة ، ثم تختفى وراء الظـلال الرمادية .

وفى جنبات الخيمة ، كانت المصابيح توهج ، والرفاق برءوس ملفوفة بالأربطة أو أذرع معلقـة الى صدورهم ورقابهم ، يجلسون فوق حشى قائمة ، والوجوه المحتقنة تستلقى فوق الوسائد والعيون فيها تحترق بالحمى وتغوص عميقة فى محاجرها ؛ وفى اللحظة التى دخلت فيها اخترقت رأسى على الفور صرخة داوية ، تبعها صوت هادىء يقول : « الرباط . . . بسرعة »

وعندئذ فقط ، نظرت حولى فرأيت جمهرة من الممرضين فى لباسهم الأبيض يتفون حول رجل له وجه شفوق تحيطه لفافات رمادية ، ولم أستطع أن أرى الرفيق الذى صرخ ، ولكن مر على ممرض يحمل لفة قطن مخضبة بالدماء ويبدو فى جوفها شيء أسود مهرأ يظهر أنها يد حطمتها شظية . وأحسست بقطرات العرق البارد عند جذور شعرى ، واندفعت طفرة من الدم الى رأسى ، الا أن هذه المرة أرتفعت زمجرة تبعتها صيحة ألم عميقة ، كما يفعل حيوان حبيس ايقظتنى من الهذيان . . وعلى الضوء استطعت أن أرى الحمال الذى رافقنى ، والأطباء يتجولون بين الجرحى ، يرون جراحهم ويتحسسونها ويضعون فوقها الأربطة أو يعرونها .. وتتابع الارتجافات والآهات فى الضوء الشاحب .. شبان رائعون أقوياء يفتحون أفواها سوداء واسعة وعيونهم تنضح بالألم ، وهم يقاومون الأيدى التى تضغطهم كأنما هى أمواج تتقاذفهم ثم ينامون فى سكون ووجوهم معلقة فى ثقل كأنما فوق صدورهم حمل كبير . . والدماء تجرى كالمياه ،وقطع من اللحم تقع فى «الجرادل» ونقط من الدم تنتثر والاطباء يتناولون الأدوات بسرعة ويمررونها بينهم وهم يتحدثون فى استعجال وبعضهم يفك الرباطات أو يخففونها ثم يمرون فى سرعة .

وصاح رفيق شاب على وجهة براءة كبراءة طفل يقول «:دكتور لاتقطعنى . . . يامسكين ياأنا . . انما مجرد رصاصة ، ليس بى شىء»

ويجيب الطبيب «دعنا نراها» ، وبينما الفى لازال يئن ، كان الممرضون ينزعون عنه ثيابه ، والطبيب ينفض عن يديه قطرات دم آخر رجل ، وانحنى فوقه وراح يحملق فيه بتدقيق ثم قال « ماذا تظن يارجل ... لقد حطمت شظية ثلاثة من ضلوعك ولابد أن ننزعها . . . » وعاد الرفيق يزأر بالشكوى ، ولكن عندما ضغطة

المرضون الى أسفل صمت فجأة وعيناه تحلقان ، وغلى الطبيب مشرطة ، وشمر أكمامه وبسط يده اليسرى أولا ، ثم أخذ يعمل بيده اليمنى فى سرعة ... نفس الصرخة ، ونفس الأنات تجيبها أنات أخرى من الأركان حيث تجمعت جمهرة أخرى من الرجال . . وأقرب منهم كان رام بدين وفكاه مطبقان فى اصرار وهو ينظر الى الدم المتساقط من الرجال الآخرين والآلات الدامية التى تقترب منه لتقطع لحمه هو الآخر . وسأله الطبيب « أين جرحك ؟ » ، ولم يجب وأشاح بوجهه وسأله الطبيب مرة ثانية : أين جرحك ؟! .. لابد أن تخبرنى ، ثم ابتسم فى بساطه ، وود وأحاطوا بالرامى البدين وهم يبحثـــون عن جرحه ، ولم ألبث أن سمعت زمجرة غاضبة .. وكان الطبيب يتحرك بسرعة ويتحدث أسرع والمرضون يحاكونه بكل طريقة ممكنة فى كل الجوانب ، بينما كان الرامى البدين قد استسلم للصمت . . . تركوه منفردا مستلقيا فوق ظهره ، وعيناه تطلقان شرراً داكنا وهما تحلقان الى اعلى من خلف حواجبه الكثيفة وشفتاه مطبقتان وهو يتنفس خلال أنفة بصوت مسموع .

وارتفع الانين من كل جانب ، وجرت الدماء معه أنهـــارا ، والأيدى المغلفة بالمطاط ، سوداء وغليظة تتحرك فوق الضمادات فى الضوء ، والأطباء يرفعون أيديهم السوداء حتى المرافق ، ودفعة واحدة وجدت أنه دورى ليلتفتوا حولى .

وتملصت . . . وغضبت وأنيت ، ثم استلقيت على ظهرى دون أن أحس شيئا .

وعندما استيقظت ، أحسست بالصداع فى رأسى كأنما مخى ينفجر ، وكنت أشعر بالحمى وهى تجتاحنى ، وفى الخيمة الكبيرة كان السكون سائدا والمصابيح كالعيون المتلصصة وأن بعض الجرحى بلا

وعى ، وكان بعضهم قد استسلم للنعاس ، وهناك تلتمع بعض العيون فى الضوء الشاحب ورائحة البنج تملأ المكان ؛ وكنت أشعر بتيارات من الحرارة وتيارات من البرودة تجتاحنى وكنت أحس أننى على أعتاب ألم كبير . . . وفى حالتى اللاشعورية كنت أرى الأشياء ولا أفهمها . . ودخل بعض الممرضين ، ومروا بين «السراير» وهم ينحنون فوقها . ثم توقف واحد منهم فجأة وهو يرفع غطاء ؛ وانحنى واقترب الآخرون منه . ورأيتهم كأنما فى حلم يتحركون وهم يرفعون الغطاء . ويحملون الرجل الذى استلقى متخشبا ومات فى وحدة خالصة ، مجهولا من الجميع ، ثم أصابتنى دوامة الحرارة التى كنت أتوقعها ، ودارت رأسى وشملنى الظلام .

وكانت الأيام التالية . فترات قصيرة من الوعى . تجعلنى أحس بارتباطى الى العالم ؛ كنت أتخيل كأنما أسير تحت سماء داكنة فى المطر والوحل ؛ إلا أن هذا كله وهم ، وأتخيل ثللا من الجنود ، صامتين يلتصقون ببعضهم تجاه ريح الشتاء العاصفة . وقرى خالية تتلصص عليها عيون غريبة لفلاحين ليسوا من أهلنا . . وبمضى الوقت نقلت لأقضى فترة نقاهة طويلة ، فى غرفة كبيرة نظيفة فى مستشفى «كورنو ماجارلى » .

كان هناك عمق . . عمق لم يحسه قلبى لمدة طويلة . وبدى لى كأنما سنوات قد مرت منذ اجتاحت العاصفة خيامنا فى وديان بليفنا . . . وخلال هدوء الليلة الأولى وتحت الضوء الذى يرسل أصابعه فوق « السراير » البيضاء بدأت أفكر فى المتاعب التى مرت بى فى حياتى البعيدة جدا فى أيام السلم .

منذ عام ؛ لم أحلم عندما عدت الى مسقط رأى فى أجازة بالمآسى

كانت أمي فخورة بي جداً . وتفكر راضية فيمن يتساقطن حولي من نساء . وطبيعي لكنه أمهر راقص . وأحسن مغنى . وفى الحفلات كنت أروى الشعر حتى أن كل النوافذ عند مروري فى حارات مدينتنا أصبحت ترتفع من خلفها تنهدات .

ما أبعد هذه الاشياء الآن ... وأبى كما لابد أعلم ، قد ازداد كبرا بالهم والأسف ، بعد رحيلى . وأمى على الاغلب ، سوف « تفتح الكتشينة » دئما لترى أى حظ يمكن أن يصيبه ولدها الذى ذهب . حيث يعلم الله وحده ، ليقاتل الترك هناك وراء الدانوب ... ثم أتخيلها متعبة تستلقى فوق « الكنبة » وعيناها غارقتان فى سحابة من التفكير . والسيدات العجائز من الجيران يأتين ليتحدثن عن الانباء الآتية من بليفنا ... وفى قلب أمى حزن وأسف . فلا أخبارعنى وسوف تتنهدأمى بأسى ؛ وستغلق عيناها وتنساب حبات الدموع فوق وجنتيها .

على أن كل هذا الاسف . كان يتركنى هادئا . فأنا أعلم أننى سوف أرجع لأضع لهذا الاسف نهاية ، والمرح والعبث انتهى ؛ لم أعد أنتمى إلى قطيعهما .. وفى وجهة الموت بدت الحياة مختلفة ولم أعد أفكر فى بعثرتها كذرات الرماد .

فكرت فى أشياء عديدة . ونمت بذهن تحتشد فيه الصور والافكار ، وعندما استقظت . كان شخص يبتسم فى وجهى ، وملأت الابتسامة عيناى وقلبى بضوء باهر كالشروق ... كانت امرأة . سيدة ، واحدة من المتطوعات اللاتى صاحبن الصليب الاحمر ليمرض الجنود المساكين العائدين من هذا الجحيم « بليفنا »

بشرتها بيضاء يعلوها نمش دقيق ، وعيناها زرقاوان تحت حواجب سوداء ، كان هذا هو كل مارأيت وأحسست برعشة عندما وضعت يدها الصغيرة فوق جبهتى . . . سمعتها تتحدث: « دكتور . . . ماحال هذا الرفيق » . . . وفى البداية صدمتنى كلمة الرفيق ؛ أنها تعتبرنى جنديا عاديا ، ولست كذلك تماما . . . وجاءها الجواب : « كان جريحا » وعندما نظرت حولى ، رأيت طبيبا مديد القامة نظيف وحليق الذقن بلباس أبيض وثلة من الرجال فى أردية بيضاء خلفه ، وعاد يقول وقد لاحظت أن له سنا طويلة : كان جريحا . . . لقد استخرجت الرصاصة ولم يزل مكانها جرحاً خطيرا جدا .. ولقد ظننا أن لا بد من أن نقطع ساقه . . . إلا أنه الآن أحسن حالا . . . والحمى قد عاودته » وسألتنى السيدة وهى تستدير إلى وتنظر فى وجهى نظرة ثابتة : من أين أنت ؟! »

وأجبتها بلطف : « من مدينة كامارا تشتى »

— ألست من الريف ؟!

— كلا

وكانت عيناها كأنما تخفى سلوكا من ذهب ، وعلى وجنتيها بدأت ألاحظ لونا شاحبا تحاول أن تخفيه ، وحاجباها يتقوسان فوق عينيها وهما ينسحبان عند أطرافهما فى رفع . وعادت تسألنى من جديد : « هل تشعر الآن بتحسن ؟! ولم أجب ؛ أغلقت عيناى وصورتها لم تزل تملأهما ، بيضاء خفيفة على ستار أسود ؛ وبعد هذا لاحظت أن يدها لم تعد تلمس جبهتى ؛ وعندما فتحت عيناى لم أجد أحدا إلى جوار فراشى ، وبعد هذا جاء الاطباء ، وفحصونى ، وكنت أفكر

فى أشياء أخرى فلم أعرهم أهمية .

وعندما خليت الحجرة، وساد السكون ثانية ، بدأ المرضى يتهامسون ، القدامى يسألون الجدد الذين جئت معهم عن متاعب الباقين فى الجبهة وأسفهم ، كانوا يريدون أن يعرفوا هل استسلم الترك وهل حدثت معارك أخرى . وكان الجدد يجيبون بأصوات هادئة وأعين ملؤها الألم ... وبعضهم سألنى أيضا ... وأجبت فى البداية ، ثم لم أعد أجيب . وسمعت همسة : «يالله... أنه متأفف» ولكنى حتى لم أدر عيناى .. لقد تأففت فعلا ، إلا أن السكون قد ساد شيئا فشيئا ، وانسابت شمس الخريف الغاربة من خلال النافذة ، واستلقى شعاع أبيض فوق أرض الحجرة ، وفى الخارج تبلغنا أصوات ضعيفة كصوت ديك يؤذن ، وفى الداخل ، كان معظم الجرحى ينامون ، بين الاغطية البيضاء ، بعضهم على جانبه وبعضهم فوق ظهره ، وأفواههم مفتوحة وأنفاسهم خفيفة .

أحسست بتحسن كبير فى هذا السكون . وأنا أفكر فقط فى شىء واحد .

واستيقظت فى الصباح التالى مبكرا ... والكل ينام ، وأخذ عقلى يعمل ، وأفكارى تذهب بعيد ، إلى أبى ، الى أمى ، الى الفتيات اللاتى اعتدت أن أغنى لهن والدموع فى عينى : « جميلة كالوردة ياحبيبتى ... فى عالمنا هذا البائس » ثم تستقر نظرتى فوق الساعة الكبيرة المعلقة فوق الباب .

وعندما شاهدت السيدة الزرقاء العينين . السوداء الحاجبين . قفز قلبى كأنما تفجرت فيه طلقة ساخنة . وأغلقت عيناى وانتظرت ،



وكانت عيناها تخفي سلوكا من ذهب

مرت فترة طويلة ثم أحسست بيد دافئة فوق جبهتى .

ثم رأيتها ، هادئة كما كانت فى الامس ، والدكتور الحليق النظيف ذو السن الكبيرة خلفها ومن خلفه ثلة من الرجال ، وسيدتان آخرتان معها ترتديان ثيابا سوداء ، إلا أنى ظللت أنظر إلى تلك التى أخذت تسألنى بصوت حلو ويدها الناعمة فوق جبينى : « أنت الذى لم يستطع أن يجيب بالامس ... كيف حالك الآن ».

ـــ أحسن . . إلا أن ساقى لاتزال تؤلمنى . ولم تكن ساقى تؤلمنى أبدا ، ولكنها نظرت الى بعطف ، وكان هذا كل ماأتمناه . .

ـــ سوف ينتهى الألم . . لاتخاف .

وأغلقت عيناى ، ومر اليوم فى هدوء ، والضوء المتراقص والأصوات الضعيفة كالحلم تأتى من الخارج . . وأحسست كأنى فى حمام دافىء ، والثوانى من الساعة الكبيرة تتساقط واحدة وراء الأخرى من الحجرة الكبيرة ، والممرضون يمرون فوق أطراف أصابعهم ، والأصوات تترادف بلا معنى كأنما هى أنفاس عابرة .

وكل يوم ، كانت السيدة الزرقاء العينين تأتى ، تأتى بصوتها المنخفض ويدها الصغيرة الناعمة ويبدو أنها تنساب فى سرعة ، والآن كنت ألاحقها بعيناى حتى تختفى من الحجرة ، وأنا أشعر بالدفء فى صدرى وقلبى يمتلىء بالغموض . . وترادفت الأيام ، والأنباء تأتى من الخارج كأنما تهبط فى عالم بعيد ، أنباء الحرب . . نحن على أية حال ، فى الضوء والدفء نريح عظامنا المهشمة ، وقلوبنا تتفجر بغضب عاصف . وثمة أمل جديد ينفجر فى صدورنا ، فقط هؤلاء

الذين قطعت سيقانهم وسواعدهم . ينتظرون بلا أمل وثمة ألم قائم فى عيونهم ، كانوا صامتين أبدا وهم يتنهدون بلا توقف فى أسف كبير والجرح يلتئم فى الجسد ويتفتح بلا حدود فى قلوبهم .

وفى الليل ، يروى البعض منهم أشياء كانت تحدث فى الجبهة . يتحدثون ببطء، بتفاصيل عديدة ، وفى الضوء الشاحب ينصت الآخرون ؛ جالسين أو معتمدين على مرافقهم ، حتى وقت متأخر من الليل . وصوت الرواة يملأ الحجرة الكبيرة بالهمس المثير . ثم يصمت الصوت ولا شىء غير دقات الساعة المعلقة فوق الحائط. وكان رواة القصص اكثر نشاطا فى الليالى العاصفة ، عندما يختلط الرعد بصوت المياه المتدفقة التى تزأر كصوت سقوط المداخن ،وأنا أفكر فى الاخوة الذين خلفناهم على أرض المعركة ، يخترقون ممرات الجليد وهم يكافحون من أجل بناء المستقبل .

العينان الزرقاوان تدوران فى الحجرة كل يوم ، وكنت أنتظرهما ، وأتابعهما وأفكارى ترتبط بهما ، وشعرت أن ساعة رحيلى عن المستشفى تقترب وخفت هذه الساعة ، ولابد أن نظراتى كانت تحمل معنى كهذا بكل تأكيد ؛ فالسيدة تتوقف اكثر الى جوار فراشى وتنظر الى نظرة طويلة وعلى شفتيها ابتسامة شاحبة ـ ابتسامة حلوة ـ وتتحدث الى بلطف فى صوت يبدو لى كأغنية . كانت تسألنى عن الماضى وتوجه الحديث شطر أبى وأمى؛ لقد اكتشفت الآن فى شيئا غير عادى ؛ وكانت تحب أن أتحدث اليها عن أشياء عديدة .

وحتى الآن ، عندما أستعيد الليلة الماضية التى قضيتها فى المستشفى ، يظلم كل شىء أمامى ، انى لا أستطيع أن أغلق عيناى لبرهة طويلة . انى أستطيع أن أحس وخزا فى الجرح الحديث الالتئــــام . لقد انقلب قلبى رأســـا على عقب ولست ادرى ماذا أريد او اشتهى بالنسبة له ، انى انتمى الى ابى ، الى امى ، الى مدينتنا الصغيرة ، وعلى الرغم من هذا كم احببت ان اظل حيث انا مقيد الى فراشى فى الضوء . تضايقنى الأقاصيص التى يرويها الرفاق ، ناظرا الى الساعة كل صباح وعيناى وقلبى يترقبان اللحظة التى يفتح فيها الباب .

وحانت اللحظة الاخيرة . فتح البـــاب ودخلت المرأة الزرقاء العينين . وكنت جالسا على حافة الفراش وقد ارتديت ثيـــابى ، ناظرا اليهما بوجه مصفر وشفتان مطبقتان وعينان واسعتان شعرت كأنهما محموتين . كانت تبتسم ، وجاءت مبتسمة تجاهى وتوقفت وهى تسألنى : « أنت راحل اذن يافالينو » وأجبت فى صعوبـــة : نعم ... أنـا راحل ورفعت عينى لأنظر اليهـا ، وكانت ترقبنى فى ثبات وهى تبتسم ... وتمنت لى صحة جيـدة ثم استدارت لتمضى . ولكنهـا توقفت وضحكت فى خفة : « فالينو ، أنت لم تقـل لى اذا كانت لك خطيبة تنتظرك فى كاماراشتى . . . اذا كانت لك خطيبة فلتوفقا معا ، ولكن لاتنسنا نحن أيضا » . ثم أمالت رأسها جانبا ضاحكة وهى ترمينى بنظرة أخيرة طويلة ، وأجبت : « ليس لى خطيبـة . » ومرت بى ... ثم ، من عنـد البـاب ، ظننـت أنهـا استرقت نظره الى ... لست متأكدا فربما كان هذا مجرد خيال ... طبعا كان مجرد خيال ...

وغادرت الحجرة بعدهـا تماما ، ولم أرها بعدئذ على الاطلاق .

الأسرى

كانت المجموعة الثانية من الاسرى ؛ الذين أسروا فى مواقع بليفنا تصاحبها ثلاثة سريات من الكتيبة الثالثة عشرة ، وسريتان من الخياله ... وبدأوا سيرهم فى اليوم الثانى من ديسمبر .

وفى اليوم التالى عندما كانوا يعبرون أحد الوديان هاجمتهم عاصفة ثلجية ..: ريح باردة كانت تعصف وتجعل الوجوه تنكمش كأنما يمشى عليها « موسى » حاد ... كانت الريح تحمل الثلج موجة بعد موجه وأحيانا كانت ترمى فوق الكون سحابة قاتمة فى الظلام ، بضرباتها العاصفة التى ترفع الثلج من الارض لتردها مرة ثانية الى السحب .

والعواصف الثلجية تتضخم وتثور عند رءوس التلال فى دوامات مدمدمة ، تنزلق فى دوى الى الوديان عند أقدام التلال ثائرة مدمرة والثلاثة آلاف والنصف أسير ؛ الذين خاضوا معارك بليفنا وأنهكهم التعب والارهاق ؛ كانوا يتقدمون خلال العاصفة الثلجية الثائرة ، كانوا يتقدمون متلاصقين كأنما هم كتلة واحدة ، بظهور محنية ، وجباه تلمس الصدور ، تحت سياط العاصفة الثلجية وضرباتها ، وكانوا يرتجفون تحت هذه السياط وهذه الضربات والبرد الشديد قد زحف تحت جلودهم ، ومن أمامهم ومن خلفهم كان الجنود ؛ ولم يكن من

الممكن تمييز الخيالة إلا بصعوبة كبيرة كأنما يغشاهم ضباب كثيف... كانت مجرد معاطف جلدية تتلاعب بها الرياح فتطاير على الجانبين وحديد البنادق يبدو قاتما .

وفى هذه الجهرة من الناس لم يتكلم أحد.. والخيل تصهل وهى تتقدم خطوة خطوة فى ممر عريض تتلاطم فى جنباتها قطع الثلج الأبيض الكثيف ، وأنفاسهم يلتقطونها فى صعوبة وأسنانهم تصطك وهم يساعدون الواحد الآخر .

كانت الريح تجعل الثلوج تتطاير ، ثم تتركها كأعلام بيضاء ترفرف فى الهواء ، ثم تقذف بها لتتراكم فى أكوام .

كان الجنود العثمانيون مرهقين ... يرتدون ملابس خفيفة رفيعة وأحذيتهم قد تهرأت ، ضعفاء أضعفتهم الحرب وقلة النوم... كانوا يمشون بصعوبة ، كانوا يترنحون ثم يسقطون ويزحفون على أربع ، وكانت الثلوج تتسرب من أحذيتهم المتهرأة ، ومن ثيابهم الممزقة إلى أجسادهم ... كانوا يتقدمون وأكتافهم مرفوعة وأيديهم تختفى تحت أبط ستراتهم ... ومن قمة اليأس كانوا يشيدون بالشجاعة وتلتمع أعينهم ، كانوا يسترجعون قواهم عندما يحسون بالأعين المتلصصة التى ترقبهم .

على أن الأمر كان فى منتهى الصعوبة ... حتى جنودنا ، الذين تعودوا هذه الصعوبات ومارسوها كانوا يتقدمون بكل صعوبة .
وصاح البتشاوبش مايشيوى وهو يتنهد : « ياللقسوة » ورفع يده اليمنى بعد أن انتزع عنها القفاز ، وأخذ يزيل الثلج المتناثر فوق جبهته واستأنف : « هذا الجو القاسى ... انى لم أر مثله من قبل » .

وسأله الضابط كراكوين : ماذا دهاك ياما يشيوى ؟!.. أنك لاتستطيع حتى أن تسب وتعلن ، أن العاصفة تملأ فمك أليس هذا صحيحاً ؟! »

وزأر مايشي وهو يدمدم : « هذا الجو ... كالجحيم » .

وأجاب الضابط : « أنى أشاركك هذا الشعور يابنى» ثم ابتسم ؛ ابتسامة صغيرة حولها البرد الى تقلص خفيف فى شفتيه ؛ واستأنف كم أتمنى أن أكون فى حجرة دافئـــة ، فى صحبة زجاجة من النبيذ الساخن ، وأمامى دجاجة مقلية . »

وتنهد مايشي تنهيدة أشبه بزئير وهتف : أنا ... لقد نسيت حتى طعم الدجاجة المقلية .

كان الضابط والبتشاويش يسيران جنبا الى جنب ، كأصدقاء قدامى ، خاصة وقد ربطت بينهم الاوقات العصيبة ، واحد منهم جندى قديم ترقى من رتبة الى رتبة حتى وصل الى رتبة الضابط ، والآخر ، البتشاويش ـ متطوع ، وهو ابن القرية من ريف فاسلي .

كانا متدثرين فى ثيابهم الرمادية ، تضربهم الريح العاصفة ، وكتلة الأسرى التى تتقدمهم كان الكابتن يتبعها وهو يميل على سرجه يحتمى به من الريح والثلوج ... ومن خلفه تأتى البقية من جنودنا وضباطنا .

وقال كراكوين : « لايهمك ... شىء جميل أن تنتهى الحرب ، نحن لا نترقب الآن قنبلة تطير فوق رءوسنا ، وسوف نعود قريبا الى بيوتنا ، وعندئذ سوف يتحسن كل شىء . »

ـــ نحن نأمل هذا ياسيدى ، فقد تحملنا الكثير ؛ أننى أصدق

بصعوبة أنى حى وسليم ، وهناك مثل يقول أن الله لا يغفر لرجل بقدر ما يغفر للرجل الذى يتعظ .

ولم يجب الضابط ، كانا يفكران معا فى نفس الشىء ؛ عواصف النيران التى خاضوها ... كانت كتيبتهما أول كتيبة تدخل معارك جريفنا الدامية ، وتلقت قسطها من النيران المدمرة فى السابع والعشرين من أغسطس ؛ وفى اليوم الحادى والثلاثين ، غداة سقوط جريفنا خاضت الكتيبة معركة مع جنود العــدو الذين تقدموا ليحاولوا منع جيشنا من احتلال السهول المحيطة بها ... ولولا تدخل الكتيبة الثالثة عشرة لتقتل الترك كما حدث ، وتأسرهم بأعداد كبيرة ببنادقهم ، لتمكن الترك من الانتصار خاصة وجنودنا كانوا مرهقين من المعركة التى خاضوها بالامس.

وفى الرابع من سبتمبر ؛ أخذت الكتيبة تحفر الخنادق فى جو ردىء ، وتقاتل فى الظلام ثلل من جنود الترك. تهاجم بين آونة وأخرى فى الليل لتأخذ رجالنا على غرة ؛ وحقيق كانت كتيبتهم قد حاولت الكثير ، وفعلت أكثر ...

وكان هذا الصمت المثقل بالأفكار يروى أكثر مما قد يفلح طوفان من الكلمات من قوله .

وعلى هذا ، مشوا لبعض وقت ، عندما صهل جواد القائد فجأة ثم توقف ؛ ورفع مايشى رأسه وهتف : « ماذا هناك »

وصاح الكابتن : ثلاثة من الأسرى قد سقطوا فوق ركبهم .

واقترب البتشاويش والضابط كراكوين أكثر ، وخطى الرفاق.

خلفهم عدة خطوات ثم توقفوا ... وفى الثلج أمام الجواد ؛ سقط ثلاثة من الأسرى بين الجمهرة التى تتقدم ببطء .

وصاح القائد فى صوت تخنقه الخوذة المسدلة على وجهه : « أعطيهم أمرا بأن يقفوا على أقدامهم »

وهتف مايشى فى صوت مرتفع : « قفوا يارجال . » ثم انحنى فوقهم مستأنفا : « قفوا لم يعد أمامنا الكثير لنبلغ القرية ».

وبقى الاتراك يتخبطون فى الثلج وعيونهم مليئـــة بالارهاق والنوم ... لم يكن فى استطاعتهم أن يفهموا شيئا ، كانت رموشهم تسقط كأحمال ثقيلة فوق أعينهم ...

كانوا يرتجفون فى ثيابهم القصيرة ، وقد « ازرقوا » من البرد وتجمدت وجناتهم واسودت شفاههم ... ولم يكن فى استطاعتهم أن يفهموا شيئا .

وصاح مايشى مرة ثانية : « انهضوا ... تماسكوا » وسل سيفه ، إلا أنه غير رأيه وأعاد سيفه إلى غمده ؛ وقال الضابط : « هؤلاء البؤساء ... دعهم »

ـــ حسنا ، ولكن ماذا سنفعل بهم ؟ »

وأعاد القائد من فوق صهوة جواده السؤال : « صحيح .. ماذا سنفعل بهم ... انهم يؤخروننا . »

وأجاب كراكوين : « لا نستطيع أن نحملهم، فالرجال يتقدمون فى مشقة الآن »

ونظر واحد من المتساقطين الى أعلى لمدة ، بنظرة غبية فى عينيه وبحركة خفيفة من يده ؛ استسلم واستلقى على جنبه ... والضباط

والشاويشية والجنود من خلفهم كانوا ينظرون مستطلعين دون أن يقولوا شيئا ... واستلق الأسرى فى الثلج ولوى القائد أعنة جواده ، وارتفع صوت كراكوين الخشن بالأمر : « الى أمام »

وتقدموا الى جانب الأسرى المتساقطين الذين تركوا وحدهم فى الصحراء البيضاء ، كانوا يستلقون بعيون مغلقة ينتظرون النهاية فى صمت ، ومشى مايشى والضابط جنبا الى جنب لمدة طويلة دون كلمة واحدة .

وبعد فترة ، رفع الضابط رأسه وأشار بيده قائلا : «أنظر ... أظن أننا نقترب من القرية ». وشد الشاويش هو الآخر جسده ، وفى الثلج المتساقط بكثرة كان ثمة شيء معتم يستبين الى اليمين ،على مائتى خطوة ... وكانت الريح تزأر كأنما هى حمل ثقيل من المياه الصاخبة ، وأجاب مايشى : لا ... لابد أنها نبع .»

وعندما اقتربوا ، وجدوا أنها فى الحقيقة نبع كبير حوله غابة من أشجار البلوط رفيعة الاوراق ؛ تزأر بينها ريح الشمال فى وحشية . وتتف الثلج البيضاء تتكاثف فى الجوانب كأنما هى تريد أن تقتلع اشجار البلوط من جذورها .

وبينما كان الرجال محلقين ارتفع صوت القائد مرة ثانية : « ياللجحيم »

قال الضابط : « لقد سقط بعضهم مرة أخرى »

وهذه المرة كان أسير واحد ، عملاق أصفر الوجه ؛ ضعيف يقاسى فى مرارة ؛ وكان يتمتم بنعومة بلغته ، ويغلق عينيه ويفتحهما ؛ وصاح مايشى : انهض يارجل ... سوف تتمتع



انهض يارجل .. سوف تتمتع بالدفء فى القرية

بالدفء فى القرية .

واستلقى الاسير فى الثلوج وصاح القائد : « الى أمام »

ومرة ثانية مر الرفاق الى جانب الاسير المتساقط . . . والعاصفة الثلجية تزداد قوة وعنف ، كأنها طيور ضخمة بيضاء تحوم فوق رءوس الرجال ؛ وعلى بعد غطت أمواج الثلج الاسير الذى ترك وحيدا فى الصحراء الموحشة .



فى القرية

«ظلوا يخبون فى الرياح والثلوج ، وقال البتشاويش بعد برهـة :
البعض الكثيرون منا ماتوا بسببهم »
وأجاب الضابط : انها مسألة مبدأ يارفيق القديم ... ليس عليهم
أى لوم كذلك ان قلبى يذوب أسى على رفاقنا . . . ولكن ، اذا
شئت الصدق من أجل هؤلاء أيضا .

وتمتم مايشى : هؤلاء طغاة، لقد سلبوا كثيرا من رفاقنا الحياة.
وأجاب كراكوين « هذا صحيح ... ثم استأنف : هل رأيت كيف
غطاهم الثلج بسرعة »

ـ من ؟! الطغاة ؟! ... نعم لقد رأيتهم . وكان فى صـوت
البتشاويش رنة شفوقة .

وسقطت عليهما موجة عاتية فى الثلج ، غطت وجهيهما ؛ وحكا
بشرتهما بأيديهما وبصقا وتجشآ ثم استمرا فى سيرهما ، كان يسيران
كتفا فى كتفا : قد أحالهما الثلج الى اشباح بيضـاء ؛ وريح الشمال
القارسة تنفذ فى خياشيمها ... ومن حين الى حـين ؛ يرتفع صوت
القائد ، ثم يمران الى جوار أسير سقط وموجات الثلج تتراكم فوقه
لتغطيه ...

وعندما وصلوا القـرية ... كان تساقط الثلوج أبطـأ ، وتختلط

الثلوج بالتراب ... واندفعوا جميعا الى الفناء الذى تملأه الثلوج ، رأس الصف أولا ثم الآخرين .... وجاء القرويون من بيوتهم المنخفضة الأسطح ، وحاولوا أن يفهموا شيئا من الشاويشية والضباط الذين لم يتوقفوا أبدا ليستمعوا لهم ...

وتكتلت القوات فى مجاميع ، حيثما توقفوا . . . لقد انتزعوا الأسوار الممتدة فى القرية ، وصنعوا منها « دروة » تطرد الريح ... أو كوموها الى جوار المنازل وأشعلوا فيها النار ، يبدو أن كل فرد منهم قد نسى تعبه ... وكان الأسرى يزيلون الثلوج فى صمت وهم يعدون « الدروة » ، ويلوح عليهم أنهم فهموا ما يقوله الرومان ، والنظرات فى أعين البعض منهم قد صفت كانما هى بداية شعور أخوى. وتدريجيا ، خفت الضوضاء والضجة وانتثرت هنا وهناك ؛ وكانت الريح تحمل صوتا أو صوتين ، وفى كل جانب ارتفعت السنة النار الكبيرة الموقدة الى الهواء .

وكان مايشى وجنوده ، وشلة الأسرى معه، قد أقاموا «دروة » بين منزل ريفى وجدار كبير يجاوره ... كان مايشى يدور فى البيت منقبا والفلاح صاحبه يتبعه فى صمت ، وأحس مايشى فجأة بالغضب وصاح « ياللنكران ... ياللنكران » والفلاح خلفه تماما ، واستدار مايشى ليقذف بالكلمات فى وجهه صائحا : « انك تدور خلفى مراقبا » . ووقف الفلاح دهشا ، واعتمد مايشى فخذيه بيديه واستأنف : أنك تحملق فى . . من الذى حارب فى بليفنا ، اكنت انت ايها الجبان .. اكنت انت أو هؤلاء ... لقد بقيت هنا تتخم نفسك بالطعام قدر ما تستطيع وتدفىء نفسك أمام النار ، والآن تحملق ... لقد حطموا سورك ، واخذوا حطبك ليشعلوا النار ، فهم يحاولون



وتكتلت القوات فى مجاميع حيث توقفوا ...

أن يحصلوا على بعض الدفء ، هؤلاء التعساء ... حسنا مارأيك ؟!
واتجه اليه ، وقد أغلق عينا وبقى ينظر اليه بواحدة وقال فى همس :
« ربما لديك ما تقوله ؟! »

ولم يكن لدى الرجل مايقوله . تراجع قليلا وهو يرخى حواجبه الكثيفة فى تفكير وكان يعجب ماذا يمكن أن يعنيه هذا السيل من كلمات البتشاويش . وصاح مايشى فى أذن الرجل :
« انطق يارجل ؛ هل لديك ماتقوله ؟! ثم وضع يده على مقبض سيفه »

وتراجع القروى بسرعة وذخل المنزل ... ولم تلبث رأسه المشعثة أن ظهرت فى النافذة الصغيرة وهو يزمجر فى غضب .

واتجه مايشى الى النار التى تجمهر حولها الأسرى فى دائرة كبيرة وتمتم : حسنا ... لم يسبق لى أن سمعت صوتا كهذا . . . لابد أن الرجل أبكم . »

وصاح كاربورال : « نعم ياسيدى ... لابد أنه أبكم ... »
وارتفعت ضحكة خفيفة من الرجال الذين بدأوا يتجمعون حول الأسرى ، واقترب البتشاويش من النار وهو يخترق صف الرجال المتلاحمين ، ويخرج صندوق تبغة ويلف سيجارة ثم يلتفت الى رجاله « يمكنكم أن تخرجوا بعض طعامكم وتأكلوا » ...

وكانت ريح الشمال تصفر فى وحشية بين الأشجار حول المنزل ، وبين أعمدة « الذرة » التى تحاول النار أسفلها أن تشتعل ...

كان الترك يتنفسون فى أصوات مرتفعة وهم يعرضون أيديهم

وأقدامهم على قرب من اللهب ، كانوا قد امتلأوا بالألم والبرد حتى أنهم لم يفكروا فى الطعام أبدا ، وأسنانهم اللامعة تصطك ،كانوا يستديرون على جانب ثم يستديرون على الآخر ، وأعينهم تلمع للحراره التى تدفء أطرافهم ...

كانت العاصفة تقذف الامواج الثائرة ، بينما هنا حول النار الكبيرة بعض راحة تصغو لها القلوب التى أمالها الأسف الى قطع من حجر .

وبين آونة وأخرى ، هنا وهناك . يقوم رجل ويخرج الى العاصفة ويعود باكوام الحشائش الجافة والخشب ، ويلقيها فى النار وألسنة اللهب التى خمدت للحظات سوف ترتفع بيضاء تمتلىء بالحياة ...

وفجأة ، من بين الظلام ، برز جسد الضابط الى النور ، وسأل وهو يقترب : كيف تسير الامور هنا ياما يشى ...

— على أهدأ مايمكن ياسيدى ... ان رجالى الغجر يتدفئون أمام النيران .

— دعهم يستدفئون يارجل ... لقد نالوا من البرد مايكفيهم فى حياة كاملة .

وكان الجنود قد خلعوا خوذاتهم ، ووقفوا فى الضوء ووجوههم شاحبة ، وبدأ البعض منهم يتهامسون عندما ذهب عنهم البرد ، الأسرى فقط كانوا صامتين، ربما كان البرد قد سكن

عظام أجسادهم الهزيلة فى اصرار.

وجلس كرا كوبن بجوار الصديق الذى اشترك معه فى خوض مصاعب عديدة .

ـ بصراحة ، يارجل ، اننى أكافح شوقى إلى مسقط رأسى بصعوبة وأجاب مايشى : سوف نكون فى بيوتنا قريبا .. . وأفضل الا اقول اكثر من هذا الآن ، ولكن الله وحده يعلم كيف سيخفق قلبى عندما أجتاز مدخل بيتى وأجد زوجتى والأولاد .

كانا يجلسان متربعين ، يحملقان فى ألسنة اللهب وينصتان الى صوت الريح الغاضب .

ومضى الجنود والأسرى يأكلون طعامهم ويمضغونه فى بطء ، كانوا ثملين فى حرارة النار ولم يقل واحد منهم كلمة . . . وبعدئذ ، عندما فرغوا من طعامهم ، وعندما تهدأ العاصفة قريبا ، كان البعض منهم يرسل تنهدة كبيرة مسموعة .

وتدريجيا بدأوا يتكلمون . . . أخذ الرومانيون يتحدثون عن متاعبهم فى البيت ونفضوا الغبار عن ذكرياتهم القديمة . . . وكان الأسرى يتكلمون عبر أنوفهم ووجوههم وأعينهم المتعبة تنضح بالألم .

وكان الصديقان مايشى والضابط كراكوين يتحدثون عن الذكريات أيضا ، عن الرفاق الذين سقطوا فى دوامة النار ، والأيام

السوداء التى عبروها معا .

كل الذين سقطوا يرقدون فى أرض غريبة تحت الغطاء الجليدى الابيض . . . الناس فى الوطن لن يروهم ثانية ؛ لقد فقدوا الى الأبد . . . كانت الشفقة العميقة تملأ قلبيهما ؛ الشفقة التى تمتزج بالرثاء والتى طردت من قلبيهما من زمن طويل ؛ كانت تزحف الآن تدريجيا . . .

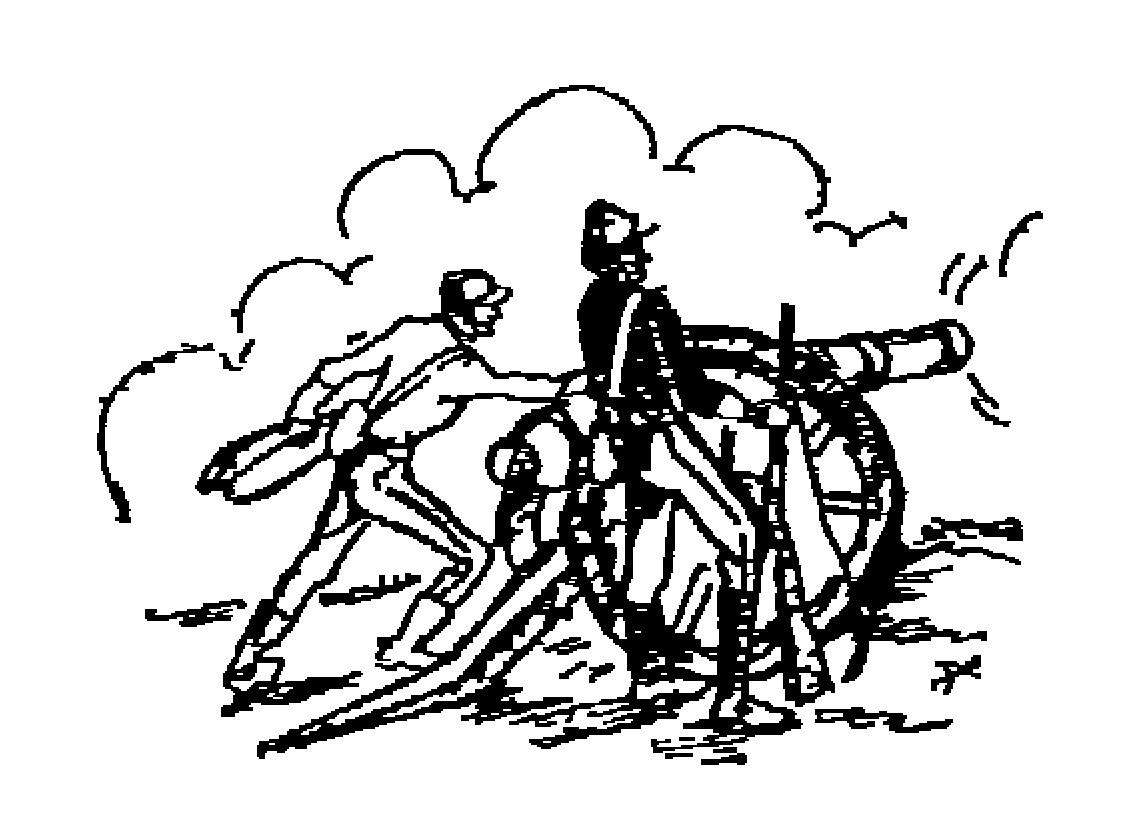
جلسا صامتين ؛ وهما ينظران الجماعة من الأعداء التى يستدفأون بالنار ويتحدثون فى هدوء ونبرات ناعمة ، وعادت خواطرهما الى هولاء الذين دفنوا فى العاصفة على بعد . سقطوا بلا كلمة ؛ ودموع متجمدة تحجرت فى أعينهم وأفواههم مطبقة على صيحات أليمة . . . وعلى الرغم من انهما لم يشيرا الى شىء ، الا أن ثمة شعور بالرثاء يتفجر فى قلبيهما لكل رجل ؛ أى رجل تعيس ؛ مهما كانت جنسيته

وكانت أغنيات ريح الشتاء تملأ الفضاء حولهم . . . والآن كان الرجال يميلون كل على الآخر وقد اسكرتهم الحرارة ، وفى خلال طنين الأصوات ارتفعت قصة يرويها أحد الرفاق من الرومانيين ؛ كان يروى قصة زوجته التى تركها خلفه فى البيت ، تماما عندما جاءها المخاض . . وعندما صمت لم يعد يسمع غير صوت حالم لاحد الاتراك . . .

وهؤلاء الذين مازالوا يقظين ، وعيونهم مفتوحة واسعة كانوا ينصتون له . وكانت قلوب الأسرى تذوب ؛ كانت نبرات صوته

البطيئة تحكى آلاما كبيرة . ثم صمت هو الآخر ... وكان جنودنا الذين خاضوا المعارك ، يستلقون جنبا الى جنب مع الطغاة الذين سفكوا دم الجرحى بسلاحهم الابيض .

ورفع كرا كوين قنينة البراندى وابتلع منها جرعة ؛ ثم ناولها الى مايشى . . . ثم تناولها منه ليشرب جرعة اخرى وهتف مايشى « هل تصدق ياسيدى . . . ان لى ابن بالغ فى البيت . . . اسمه ميهايتا . . . » وكان كرا كوين يهز رأسه مبتسما متعبا وعيناه تنظران الى بعد . . . وهذا العدد من الاسرى فى جوف العاصفة ؛ قريب من الضوء وحرارة النار . . . والرجال يميلون الواحد على الآخر بعيون مغلقه وقلوب تخفق على راحتها .



المكتب الدولى للترجمة والنشر

(وحيد راضى وشركاه)

١٠ شارع جلال ت : ٧٦٧٥٣ / ٤

الدار التى تخصصت فى تقديم روائع الآداب العالمية التى تهدف إلى تطوير حياة الانسان نحو مجتمع أفضل ومعيشة أرقى فى ظل العدالة والحرية والسلام . يقدم أحدث مطبوعاته

روائع الأدب العربى

الزوجة الثانية تأليف : الاستاذ احمد رشدى صالح

مجموعة من القصص المصرى الواقعى المنتزع من صميم المدينة الباهرة والقرية المنسية الذى يعالج مشاكل المجتمع المصرى بطريقةواقعية مشوقة أخاذة ويقع الكتاب فى ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط

وقام برسم لوحاته الفنان المبدع حسن فؤاد

الثمن ١٠ قروش

حواديت عم فرج تأليف: الاستاذ نعمان عاشور

مجموعة قصصية منتزعة من واقع حياة الشعب المصرى تصور بوضوح كفاحه فى سبيل التحرر والاستقلال من التقاليد البالية التى كانت تعوق سير جميع أفراده نحو حياة أفضل ومجتمع أسمى تتحقق فيه العدالة الاجتماعية للجميع

وفى المقدمة عرض موضوعى لأعمال كبار الكتاب أمثال : ـ

المويلحى ـ المازنى ـ محمود تيمور ـ إبراهيم المصرى ـ محمود كامل ـ توفيق الحكيم ـ طه حسين ـ يحيى حقى

والكتاب ١٤٠ صفحة ويتضمن رسوما للفنان الموهوب جمال كامل

الثمن ١٠ قروش



- صحفي بدأ حياته الصحفية محرراً بجريدة صوت الأمة عام ١٩٤٨ ثم ساهم في كثير من الصحف الوطنية الأخرى مثل النداء والبلاغ والغد والكاتب والمساء وعمل سكرتيراً لتحرير عدة مجلات مثل : الموتور . أهل الفن . الثورة .
- واقعي ، يدين بمبدأ « الفن في سبيل الحياة » ومن كتاب الطليعة وعضو لجنة الكتاب والفنانين أنصار السلام .
- ظهرت أول قصصه الطويلة « عمالقة في الطين » في مايو ١٩٥٢ ، وقد أثارت دوياً كبيراً بين نقاد الأدب وكتاب القصة في مصر
- نشر عشرات القصص الواقعية القصيرة - التي يلونها الطابع المصري في صحف ومجلات عديدة مثل : البلاغ الزمان . النداء . الجمهورية . الغد . الكاتب . الموتور . المساء .
- ترجم له الاديب التشيكي كارل جلنكا مجموعة قصص نشرتها صحيفة كاركسلوفا أقدم صحف تشيكوسلوفاكيا

المكتب الدولي للترجمة والنشر

(وجيه راضي وشركاه)

١٠ شارع جلال ت ٧٦٧٥٣ ر ٤

يقدم

الكتب الآتية تحت الطبع

- **روائع الأدب الروسي :**

رجال الأرض السوداء

بقلم مكسيم جوركي

تعريب عبد الرحمن الشرقاوي

- **روائع الادب الإيطالي :**

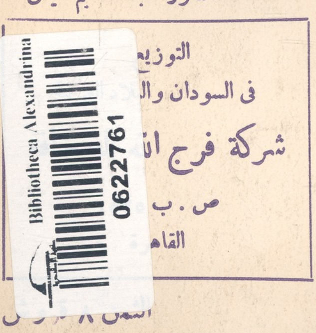
فونتامارا

بقلم اينياتسيو سيلوني

تعريب غائب طعمه فرمان

مع

مقدمة للدكتور عبد العظيم أنيس



طبع الغلاف بمطبعة أبو فاضل